
كتابى
٢٤
نساء ومآسى
فى ساحة العدالة
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد


DAMES ET
DRAMES EN
JUSTICE
par
ROGER REOIS
نساء ومآسٍ
فى ساحة العدالة
الغانية السمراء !
قصة جريمة ، ومحاكمة مثيرة ، استقى وقائعها
ووثائقها ـ من سجلات المحاكم فى القرن السابع عشر ـ
الكاتب والمحقق الفرنسى « روچيه ريچى »

مقدمة المحرر

قصة لقائى .. مع هذا الكتاب

بروكسل .. بعد ان انفض معرضها الدولى للكتاب ، وتفرق رواده من حيث جاءوا .. فى اربعة أركان الأرض !

وفرغت من زحمة المعرض ، لأتعرف على المدينة ذاتها .. بروكسل الأنيقة الفاتنة .. وقادتنى قدماى ذات صباح إلى شارع (جران بوليفار) ، ذلك الطريق العريض الجميل الذى يحيط بالمدينة ، كالقلادة حول رقبة حسناء ..

وقرب تقاطعه مع شارع (ادولف ماكس) أمام ميدان (محطة الشمال) ، لمحت ذلك المتجر العريق الذى تتيه به بروكسل ، وباريس ، وكانت تتيه القاهرة بفرع له منذ ربع قرن : متجر « البون مارشيه » ! (وكان يقوم فرع القاهرة فى شارع محمد فريد ، مكان متجر « جاتنيو » الآن) .

.. وكان يمكن ان ادخله واخرج منه دون أن اعرج على قسم الكتب فيه ، فهو قسم لا يخطر ببال زائر مثل هذا المتجر الكبير المشهور بالأقمشة ، والأزياء ، والتحف ، والأثاث .. الخ .. ولكن شاءت المصادفة ان ادخل المتجر من باب جانبى، يفضى — اول ما يفضى — إلى قسم الكتب ..

وإذا بى فى « مكتبة » ضخمة تزدحم بألوف الكتب ، والمجلدات ، والمجلات ، فى كل فرع وعلم وفن ، مما لا تجده فى اكبر المكتبات المتخصصة فى تجارة المطبوعات ! (وقد

اقتنصت فيها بعد مجموعات اخرى من الكتب النادرة ، من متاجر مماثلة له ، منها متجر Magasin ، اكبر متاجر كوبنهاجن ، ومتجر ستوكهولم المشهور (N.K.) .. ثم من امثالهما من المتاجر الكبرى العامة ، فى كل عاصمة اوربية .. وليت المتاجر الكبرى فى عواصمنا العربية تدخل وتعمم هذا التقليد الجميل الذى لا يعرفه منها حتى الآن سوى متجر « هانو » بالقاهرة ، ولكن على نطاق ضيق جدا .)

وبعد جولة طويلة بين مناضد ذلك الجناح الشائق من « البون مارشيه » ، خرجت بمجموعة من الكتب الفرنسية الممتعة ، بعضها من مطبوعات دور النشر الباريسية ، والبعض الآخر اصدرته دور بلجيكية فى بروكسل ذاتها . وكان من بين كتب المجموعة هذا الكتاب الذى اقدم لك فى الصفحات التالية ترجمة شبه كاملة له ، تجمع بين الترجمة والتلخيص :

« نســاء ومآس ، فى ســاحة العدالة »

Dames et Drames en Justice .. ترى ماذا وراء هذا العنوان الجذاب ؟ .. وتناولت الكتاب اقلبه بين يدى ، واقرأ مقدمته ، فاذا هى تعد بجولة واسعة فى تاريخ الجريمة والعقاب أمام القضاء الفرنسى ، فى مختلف العصور .. ومما يزيد من متعة هذه الجولة أن جميع المحاكمات التى تناولها الكتاب تخص جرائم من نوع خاص غير عادى . جرائم ارتكبتها .. نساء ! .. وهكذا يتيح لنا الكتاب ان نرى كيف تستطيع « الأيدى الناعمة » ان تتحول فى بعض الأحيان إلى ايد « قاتلة » ، متوحشة ، مخضبة — بدل الحناء — بالدماء ! .. وأن نلمس الدوافع التى تجعل الحب — والحب الصادق،

المضحى ، فى كثير من الأحيان ! ـ قديرا على أن يقود ، من فرط عنفه ، إلى الجريمة ! .. وقديما قال «جايو دى بيتافال» ـ احد مشاهير المحامين فى القرن الثامن عشر ـ إن الجرائم الكبرى تتطلب من الجراة ورباطة الجاش اكثر مما تتطلبه الفضائل الكبرى ، لأن المجد الذى يصاحب الفضائل الكبرى هو فى ذاته حافز قوى ، بينما التحقير الذى يكون عـادة من نصيب المجرم كفيل بتثبيط همتــه .. وإذا كان هـذا الراى قابلا للمناقشة ، من وجهة النظر الاخلاقية ، فالذى لا شـك فيه ان الجرائم اكثر رسوخا فى ذهن الإنسان من الفضائل ، لا سيما إذا انطوت هذه الجرائم على عنصر « عـاطفى » . او كانت بطلتها امراة فاتنة !

وقد عنى الـكاتب والمحـقق الفرنسى « روجيه ريجى » ـ الذى وضع اكثر من اثنى عشر كتابا اسـتمد مادتهـا من جرائم التـاريخ واحداثه الغامضة ! ـ بأن يجمع فى هـذا الكتاب اشهر جرائم الماضى ومحاكماته ومآسيه ، بعد أن اعاد تحقيقها والقى عليها أضواء جديدة لم تسـنح لمن سـبقه من المحققين فرصة استيفائها فى تحقيقاتهم السابقة .

وفيما يلى ، اقدم إليك الحلقة الأولى من « نساء ومآس فى ساحة العدالة » ، تتبعها الحلقــات الأخرى فى الصفحات التى تليها من هذا الكتاب .. فتعال نعد إلى القرن الســابع عشر ، فى صحبة الغانية السمراء « ڤيولانت » ، ذات العينين الساحرتين :

الغانية السمراء !

كان الأستاذ « فرانسوا دى جايرو » ـ قاضى المحـكمة الابتدائية فى مدينة (تولوز) ـ رجلا صارما ، لاتشرق اساريره قط ، ولا ينم وجهه عن شىء مما فى نفسه الا نادرا ، ولا يسير الا بخطى وئيدة ، لا بتأثير السنين التى كانت تثقـل كاهـله فحسب ـ إذ كان فى الستين من عمره ـ ولا بحكم جــلال مقامه ، ومهابة منصبه .. وانما كان العامل الأكبـر فى بطء خطواته يرجع إلى افراطه فى الاعتداد بنفسه !

وفى تلك الأمسية من امسيات اكتوبر سنة ١٦٠٧ ـ تحت حكم الملك هنرى الطيب ـ اتخذ الأستاذ فرانسوا سبيله ، فى تؤدة ، صوب جسر (كومانج) ، أحد الجسور الخشـبية التى كانت مقامة عبر نهر (الجـارون) . وكان يسـير رافع الراس ، شامخ الانف ، ثابت النظرات فيما أمامه ، متجاهلا تحيات من كانوا يصـادفونه من الناس فيتنحـون عن طريقه احتراما .. حتى إذا بلغ ضاحية (سان سبريان) ، اتجـه صوب شارع ضيق ، زرى ، تسكنه اسرات العمال واصحاب الحرف ، وكانت ساعات المدينة تشير وتئتئ إلى الخامسة . وكان الأستاذ فرانسوا يدرك مقصده تماما ، فقـد اعتاد ان يتبع ذات السبيل فى مثل ذلك اليوم ـ وفى أيام أخرى ـ من كل اسبوع ، بيد أنه كان يومذاك متقدما عن موعده المعهود !

وكانت تحف بالشارع منازل منهارة الجدران ، متداعيـة السقوف ، فاتجه القاضى صوب منزل كان افضلها حالا ، وقد

ازدان بشرفات بديعة الزخرفة والمنظر ، وإذ بلغ عتبة هـذا
المنزل ، فوجىء بالباب الرئيسى يفتح ، وخرج منه رجل فى
حوالى الستين من عمره ، يتشح بالسواد ، وقد اوتى جسما
نحيلا قصيرا ، ووجها ضامرا ، وعينين كحبتى الكهرمان
الأسود .. ووجد الرجلان نفسيهما وجها لوجه ، حتى لقد
أوشك انفاهما ان يتماسا ، وصدرت من كل منهما صرخة
مفعمة بالدهشة : « بروفيسور دى جايرو ! » ..
« بروفيسور بيردو ! »

كانا صديقين منذ شبابهما ، كما كانا زميلين بحكم مقاميهما
فى المدينة ، إذ كان أحدهما يمسك ميزان العدالة بيد ثابتة ،
وكان الآخر « بيير آريا بيردو » دكتورا فى اللاهوت ، وأستاذا
فى جامعة (تولوز) .. ولكن اللقاء فى تلك الساعة ، وفى ذلك
الشارع النائى المنعزل ، كان مفاجأة ادهشت كلا منهما
وعقلت لسانه لحظات . وما لبث القاضى أن اشار إلى
الشرفات الجميلة ، وهو يتساءل « اتراك منصرفا من زيارة
الآنسة دى شاتو ؟ » . فرفع الرجل المتشح بالسواد عينيه
نحو الشرفات ، ثم اغمضهما كطائر من طيور الليل بهره النور،
واجاب بسؤال آخر : « وهل تراك — انت الآخر — قادما
لزيارة الآنسة دى شاتو ؟ »

وانتفخت اوداج القاضى غيظا ، ولكنه لم يلبث أن عدل
عن موقفه ، وهمس لصديقه كمن يسر إليه بسر خطير :
« لابد ان قوة عليا ساقتنا إلى اللقاء امام باب هذا البيت ،
لحكمة ما ! .. لهذا فسوف افضى إليك بسر ما كنت لاذكره

لغير صديق اثق فى حكمته ورصانته وتكتمه ! .. لقد تكرمت
الآنسة دى شاتو منذ حوالى ستة أشهر ، فآثرتنى بحظوة
زيارتها مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، وتناول العشاء معها ! ».
فقال أستاذ اللاهوت بدوره : « أن صراحتك يا صديقى
تحملنى على صراحة مقابلة ، فمنذ ثمانية اشهر على الأقل
لا تابى الآنسة دى شاتو على شيئا ، وإذا كنت قد زرتها
اليوم — وهو ليس من أيام زياراتى — فانما لأحضر لها قطعا
من « الدانتيلا » كانت جد تواقة لاقتنائها ! »

وهتف القاضى مغيظا : « يالك من شقى ! » . ولكن
زميله قال : « مهلا يا صديقى ، أفلا ترى أنك شقى مثلى ؟ »
.. ووقف كل منهما يرقب الآخر وقد زم شفتيه ، وتطاير
الشرر من عينيه !

ماضيها مريب .. وحاضرها مشين !

وكان اسم المرأة التى اشارا إليها وهى « الآنسة دى
شاتو » ، اسما غير مستعمل — والواقع ان المقربين إليها
خلعوا عليها اسم « ڤيولانت » ، اى « العنيفة » ! — وكانت
قد ولدت فى البرتغال ، قبل عشرين سنة تقريبا ، ولكن احدا
لم يلم بشىء عن ماضيها ، فقد كان مبهما غامضا . وقال بعض
الناس انها تزوجت — وهى بعد فى صدر الصبا — من نبيل
اسبانى احضرها إلى فرنسا ، ثم لم يلبث أن هجرها وعاد إلى
وطنه .. وزعم بعض آخر انها ولدت فى أسرة مدقعة الفقر ،
فكفلها شاب من علية القوم ، وعنى بها ، ثم هجرها فى
(تولوز) .. على أن الفريقين اجمعا على امر واحد بشأنها،

هو انها كانت وحيدة فى تلك المدينة ، لا حول لها ولا سند ولا عائل ، فلم تجد موردا للعيش غير جمالها ! فقد كانت ـ بحكم اصلها وموطنها ـ ذات سمرة فاتنة ، وعينين مخمليتين ، وشعر بديع مسترسل ، وقوام سمهرى تناسقت اجزاؤه اكمل تناسق ، و .. ومفاتن لا قبل لأحد بالصمود امام سحرها !

ولم يخذلها هذا الجمال الخلاب ، فما إن رآها العالم الدينى الأستاذ « بيردو » حتى طرح عنه كل زهد وتقشف ، وآلى على نفسه ان يتخذها عشيقة ، وليس من شك فى أن غيره قد توصلوا إلى عين ما توصل إليه . ثم قدر للقاضى الأستاذ « دى جايرو » أن يلتقى بها فى احدى نزهاته ، فتحرق شوقا إلى ان يحظى بها ، ونسى لأول وهلة كل دواعى الشرف والكرامة وجلال المقام وحرمة منصبه القضائى .. بل نسى انه كان ينحدر من اسرة جليلة ، وانه كان جدا ذا احفاد ! .. واستطاع أن يغدو بدوره خليلا لها !

ولا حاجة بنا إلى أن نذكر أن حسناء تحظى بكل هذا العدد من المتهافتين على مفاتنها ، كانت خليقة بان تلزم الحذر والمصانعة والدهاء ، وتراعى تنظيم علاقاتها بخلانها ، وتوحى إلى كل منهم بانه الوحيد الأثير بجمالها .. إلى ان قدر للمصادفة الخبيثة ان تجمع الأستاذين دى جايرو وبيردو امام بابها ، فى ذلك الموقف المحرج !

اتفاقيــة « جنتلمان » !

واتاح الصمت الذى سيطر على الرجلين فرصة لكى يعمل فيها كل منهما فكره . ولو كانا فى شبابهما ، أو لو كانا من

اولئك السادة السريعى الاندفاع والتهور ، لانقض كل منهما على عنق الآخر .. ولكنهما كانا قد تجاوزا السن التى تسمح لهما بمثل هذا النزق الطائش ، وبلغا من الحكمة والتجربة ما يدعوهما إلى ان لا يحملا اى شىء محمل اليقين ، وان لا يغترا باى امر ، بل يراعيا ـ اولا ، وقبل كل شىء ـ ما يفرضه عليهما منصبهما من مظاهر يجب ان يحترماها ، ومن نأى عن أن تحوم الفضائح حولهما ، ومن حرص على ان لا يصبحا اضحوكة اهل (تولوز) .

وكان الأستاذ بيردو أول من فطن إلى كل هذه الاعتبارات ، فهم بأن يتكلم . ولكن الأستاذ دى جايرو كان قد وصل إلى التقدير ذاته ، فسبقه إلى الكلام قائلا : « يجب ان نهدأ ، وان نكون على وئام وسلام . اما وقد قدر ان تكون لنا ـ ونحن فى هذه السن ـ عشيقة واحدة ، لها كل هذا الجمال الممتع ، فخليق بنا أن نجعل لها الاعتبار الأول ! .. فلنتجاهل الأمر ، وليستمتع كل منا بمحاسن « فيولانت » فى الأيام المحددة له ، ولنبق بعد ذلك صديقين كما كنا طوال عمرنا ! »

وهنا بسط بيردو يديه معا لصديقه ، وهو يقول : « ما اروعه من قول ! احسنت واصبت ! .. لنعتبره اتفاقا بيننا ، ولندع حبيبتنا الليلة تخلو إلى نفسها ، ونذهب إلى دارى فنحتفل بهذا الاتفاق ، ونجرع قدرا من النبيذ نروى به غرامنا ! » .. وتأبط كل منهما ذراع صاحبه ، وانطلقا فى ود واخاء صوب جسر (كومانج) .

وكان هذا خير حل ، بلا مراء . فلم يعد الصديقان

يلتقيان أمام البيت ذى الشرفات البديعة الزخرف ، منذ ذلك اليوم — وان لم يكف كل منهما عن التردد على الآنسة دى شاتو فى الأيام المخصصة له ! — وظلت الفاتنة السمراء تنعم بسخائهما وكرمهما ، وهى تجهل الاتفاق الذى تم بينهما ، وتحرص على امتاع كل منهما بكل ما اوتيت من فن ، وعلى ايهامه كذبا بانه الخليل الأوحد !

البحث عن زوج .. يغمض عينيه !

وسارت الأمور سهلة ميسورة ، إلى أن كانت الاسابيع الأولى من سنة ١٦٠٨ ، إذ اجتمع الصديقان العاشقان الكهلان فى دار القاضى ، وراحا يتحدثان — فى صراحة — عن فاتنتهما ، وإذا بفكرة تقفز إلى راسيهما معا فى آن واحد : ان يزوجا « ڤيولانت » !

وقد تثير مثل هذه الفكرة دهشة القارىء الحديث ، ولكن تقاليد علية القوم — فى ذلك العصر — كانت تبوىء العشيقه المتزوجة مكانة افضل من مكانة العشيقة غير المتزوجة ، حتى ان الملوك كانوا يعنون باختيار ازواج من حاشيتهم لمن كن يستهوينهم من الحسان ، فكانوا بذلك قدوة لرعاياهم ! .. ولماذا لا نتصور ان عواطف القاضى والأستاذ الجامعى نحو « فيولانت » كانت بعيدة عن الأنانية ؟ .. اما كان من الوفاء وصدق العطف ان يؤمنا مستقبلها ، وان يجودا لها بصداق مغر يكفل لها زوجا ؟

ومهما يكن من الأمر ، فان الصديقين اتفقا فيما بينهما على امر زواج فاتنتهما ، فعكفا على دراسته معا فى ذلك المساء .

وساهما معا فى توفير صداق طيب مشرف ، وفى تدبير كل شىء ، عدا امر واحد : من يكون الزوج المرجو ؟ .. وقضيا وقتا طويلا فى استعراض الرجال ، دون ان يستقر رايهما على احد .. كان من الضرورى فى الزوج المنشود ان يكون ذا مكانة لا باس بها ، وان يكون فقيرا ، معدما ، لا يحفل بمصدر حظه السعيد ، ويستطيع أن يجيد اغماض عينيه عن مخدع زوجته !

واستطاع الأستاذ جايرو — فى النهاية — أن يتوصل إلى زوج مثالى ، بمعونة السيد « فرانسوا ايسبالدى » ، الكاتب فى المحكمة .. فقد كان السيد ايسبالدى نفسه من المعجبين بالبرتغالية السمراء ، وان لم يطلع القاضى على شغفه بها . وكان على دراية بالشخصيات ، فراح يستعرض من كانوا فى جعبته ، ثم اختار من بينهم محاميا يدعى « بييرسان رومان »، من أبناء بلدة (جيمون) ، التى كانت تقع على بعد حوالى خمسة عشر فرسخا من (تولوز) .. وكان « بيير » محاميا خاملا ، لم يلق نجاحا يذكر فى المدينة الكبيرة ، فآب إلى مسقط راسه ، واخذ يتعيش من الدخل البسيط الذى كانت تدره عليه القضايا الصغيرة هناك ، والذى لم يمكنه من أن يجمع ثروة ما .

اما من النواحى الأخرى ، فقد كان « بيير » يعيش أرمل، ولم يبد شيئا من الدهاء ولا كان بارزا فى حلبة الهوى .. وفيما عدا ذلك فانه كان فى الأربعين من عمره ، لم يؤت شيئا من جمال المنظر يخشى معه من أن يكتسب قلب الغانية .

وما ان اقر الأستاذ بيردو هذا الاختيار ، كما اقره جايرو ، حتى استدعى « بيير » من (جيمون) ، فتلقاه القاضى مبديا عطفا سابغا ، ممنيا اياه بأنه جدير بأن يلقى منه عونا يمكنـه من ان يلمع فى ساحة القضاء ، وان يغدو محاميا ناجحا . ثم اخذ يشير إلى الطريق السوى للنجاح .. وبعـد تلميحـات عابرة ، خرج عن التكتم ، ونصحه بالزواج . ثم تمـادى فى ابداء العطف عليه ، فذكر له انه يعرف حسناء ذات صـداق خليق بأن يعينه على ان يشق سـبيله ! ثم اردف قائـلا : « .. وفوق كل هذا ، فان الزوجة التى احدثك عنها فى نضرة الشباب ، وفى ذروة الجمال ، وقد اوصانى بها احد اصدقائى عندما حانت منيته .. وبوسعى يا بنى ان اعرفك بها ، فاذا لقيت منك اعجابا ، فلست ارتاب فى انها ستنزل عند رغبتى ، وتقبل ان تكون زوجة لرجل كفء مثلك ! »

وبالرغم من عطف القاضى الكهل وحفاوته ، ومن المغريات البادية فيما عرضه ، فان المحامى الريفى كان حذرا بطبعـه ، فلم يبادر إلى الموافقـة ، بل آثر ان ينتظـر ريثما يستشـير صديقه « ايسبالدى » ، وريثما يتعرف إلى السيدة .. على انه لم يكد يرى « ڤيولانت » حتى بهر بحسنها ، وتعلق بها .

وكانت « ڤيولانت » قد حبذت الفكرة ، لما انطوت عليه من فوائد ما كانت لتغيب عنها : فهى كفيلة بأن تضمن لها رعـاية الشيخين الرفيعى المكانة ، بعد ان اسفرا لها عن سرهما . كما ان الصـداق كان فى ذاته ثروة مغرية .. فضـلا عن ان الزواج كان خير كفيل لمسـتقبلها ، ولم يكن ليحرمهـا ـ فى

الوقت عينه ـ من ان تظل على علاقاتها بالمفتونين بحسنها ، بل انه كان يسبغ على هذه العلاقات ستارا مستحبا !

وهكذا سار المشروع قدما ، وتم توقيع العقد لدى موثق عقود الزواج فى اول مايو سنة ١٦٠٨ ، ثم احتفل بالقران فى كنيسة « سان سرنان » العريقة . وحضر الحفـل كثير من اصدقاء العروس ، كان « جايرو » و « بيردو » فى مقدمتهم ! وقد شاء القاضى الماكر ان يمعن فى تمثيل دوره ، فاقترب من « بيير » ، وقال له فى لهجة الوصى المعنى بمن يرعاها : « أرجو أن توفق إلى إسعادها » . فقال المحامى الريفى : « اطمئن ، فان لك ان تعول على فى هذا الأمر ! »

فراق .. ولوعة .. واستغاثة !

ولم يكن ثمة مناص للقـاضى الشـيخ ، وزميله اسـتاذ اللاهوت ، من ان يحتملا لوعات فتـرة من الزمن تكون فيهـا فاتنتهما لزوجها وحده ، لاسيما وقد شـاء المحامى ان يقضى شهر العسل فى مسقط راسه فنقل زوجته إلى دار الأسرة فى (جيمون) ، ولم يكن يخفف من اسى العاشقين المكتهلين سوى ان المحامى ما كان ليستطيع ان يغيب عن (تولوز) طـويلا ، بعد الأمانى إلى مناه بها القاضى ، وان « ڤيولانت » لن تلبث ان تعود فتغدق من سحر مفاتنها على عاشقيها من جـديد . وهكذا راحا يعللان نفسيهما ، ويستحث كل منهما صـاحبه على الصبر !

ومر شـهر ، ثم بدأ القلق يراودهما ، لاسيما بعد ان انهى اليهما قادم من (جيمون) أن « بيير سان رومان » قد استأنف

حياته الأولى فى بلدته ، ولم يكن يبدو عليه انه يعتزم النزوح عنها !

وفيما كان « جايرو » و « بيردو » يضربان أخماسا فى أسداس ، إذا برسول يفد على القاضى برسالة من « فيولانت » ، كتبت فيها : « لماذا اغريتمانى بهذا الزواج ؟.. اننى الآن اتعس النساء ، فان هذا الزوج الذى رزأتمانى به . والذى لا احبه بقدر ما هو مدله بحبى ، لا يكف عن ابداء أفظع الوان الغيرة ، حتى انه ليحبسنى فى داره ، ويحصى على حركاتى ، ولا يكف عن صب لومه وتأنيبه على رأسى لأتفه الأسباب ، بل أنه فى لحظات الهياج ، لم يتورع عن ان يرفع يده على .. وأبدى ما يوحى بأنه قمين بان يقتلنى لو انه شهدنى اتحدث إلى اى رجل غريب ! لشد ما أنا خائفة ! .. ترى ما الذى كتب لى ؟ .. لقد اخذ زوجى يصلح داره المتداعية ، من الصداق الذى تسلمه ، وهو يستبقينى فى هذه الدار حبيسة ، ولم اعد املك سوى البكاء والنحيب . اننى اضرع اليكما بما بيننا من حب ان تخفا إلى معونتى ، وان تعملا على انقاذى من يدى هذا الجلاد ! »

وأسرع الأستاذ جايرو إلى اطلاع صديقه الأستاذ بيردو على هذه الرسالة . واستبد بهما الجزع ، فراحا يفكران فى الأمر ، وقد اشتد سخطهما على نفسيهما إذ انهما كانا ـ بغبائهما ـ السبب فى كل ما جرى .. على ان سخطهما على المحامى الريفى كان اشد واعتى ، إذ رأيا انه غرر بهما ، واعتبرا عمله استخفافا بشأنهما ، وسخرية منهما .. الم يمنه

القاضى بمستقبل زاهر ، باهر ؟ .. الم يغدق عليه من العطف والايثار الوانا ؟ .. فكيف اذن يضرب بكل هذا عرض الحائط ، ويصر على الاقامة فى بلدته ، ويستبقى الحسناء التى زوجه اياها بعيدة ، وهو الذى أفهمه أنه كان وصيا عليها ، حريصا على الاطمئنان على سعادتها ؟

وكادا يجنان وهما يتصوران محنة « فيولانت » ، ولكن .. ما الذى كانا يملكان أن يفعلاه ؟ .. أيرفعان أمره إلى القضاء ؟ وبأى حق وسلطان ؟ .. أيختطفان السمراء الفاتنة ويخفيانها فى (تولوز) ؟ وكيف ؟ .. ثم ، اية فضيحة تحيق بهما لو أن امرهما انكشف !

وفيما كانا فى حيرتهما وأساهما ، اقبل الرسول من (جيمون) بعد أيام ، يحمل رسالة جديدة من « فيولانت » .. وكانت الرسالة ـ فى هذه المرة ـ مقتضبة ، ولكن كل كلماتها كانت بمثابة حمم انصبت على رأسى الشيخين المفتونين : « لم اعد اطيق صبرا على هذا العذاب . اتوسل اليكما أن تفعلا اى شىء ـ مهما يكن ـ لتخليصى من هذا الزوج الذى يوسعنى تعذيبا ! »

اى شىء مهما يكن !؟.. ما أيسر كتابة هذه الكلمات ، ولكنها لا تهدى إلى حل ما ! .. وشيئا فشيئا ، اخذت اللهفة والجزع والحيرة تفقد الشيخين عقليهما . ولم يكن لأستاذ اللاهوت عهد بمثل هذه المعضلة ، ولكن القاضى كان على النقيض منه . فكم من قضية صادفته ، ففصل فيها بين زوجين ، على ضوء شكايات احدهما من الآخر ! .. ولكن هذه

القضية لم تكن من هذا القبيل . اذن ، فكم من قضية حــكم فيها بتحرير زوج ــ او زوجة ــ لأن زوجته ، او زوجهــا ، قد اختفى ، وما من احد يعلم له مصيرا !

آه ! .. ومال القاضى على زميله ، فهمس إليه : « ليس ثمة من وسيلة مضمونة لخلاص فيولانت من العذاب ، سوى واحدة : ان يختفى سان رومان ! » .. فقال استاذ اللاهوت : « هذا هو الراى الصواب ، ولكن .. باية طريقة ؟ » . ولم يجب القاضى ، بل اكتفى بأن اشار بيده فى الهواء ، ممثــلا حركة يد تهوى بخنجر ! فصاح بيردو : « ويحك ! ما ارى فى طاقتك أن تقوم بعمل كهذا ! » . وأجاب القاضى : « حقــا . ولكن العثور على من يقوم به ليس بالأمر العسير ! »

ولاذا بالصمت ، إذ لم يجسرا على المضى فى مثــل هــذا الحديث الخطير الرهيب .. ثم افترقا دون أن يبتا فى الأمر . على أن الفكرة راحت تلح عليهما أياما ، فتوهن من ترددهما ، وتبدد مخاوفهما ، وتهدىء من ثائرة ضميريهما . حتى إذا ايقنا ــ فى النهاية ــ من أنها السبيل الأوحد لإنقاذ محبوبتهما وردها إلى أحضانهما ، شرعا يفكران فى تنفيذها !

كل يسعى إلى .. ليلاه !

ومرة اخرى ، فضفض الأستاذ جايرو بأسراره ونواياه لفرانسوا ايسبالدى . ومرة اخرى كذلك ، وافق ايسبالدى على ان يعاونه ، لاسيما وانه كان يطمع فى مغنم لنفسه : ذلك انه كان من المعجبين بالبرتغالية السمراء كما اوردنا ، بيد انه لم يكن قد ظفر منها بمارب . وقد طمع ــ عندما اشــترك فى

اختيار زوج لها ــ فى ان يجعل منها بعد ذلك صديقة لزوجته ، فيزداد ما بينهما من قربى ، ويحظى بما كان يهفو إليه ! اما وقد انتهى الزواج إلى ما انتهى إليه ، فقد حدثته نفســه بأن يسعى جاهدا لانقاذ « فيولانت » ، فيكــون له صنيع لديهــا يمكنه من مأربه .. وبدا له ــ هو الآخر ــ أن اختفاء « سان رومان » من حياة الغانية أمر لابد منه !

وشاءت المصادفات ان تجمعه ــ فى تلك الاثناء ــ بشاب لم يكن يقل عنه قلقا على « فيولانت » ، وسخطا على زوجها ، وتحرقا إلى انقاذها مهما يكن الثمن .. فلقد كان هو الوحيد الذى احبته الغانية السمراء حبا خالصا .. احبته لشــبابه الغض ، وفتوته الموفورة ، وملاحته الباهرة ، دون أن ترجو منه مالا أو نفعا ماديا ــ كما كانت ترجو من عشاقها الآخرين ــ إذ انه لم يكن سوى .. طالب فقير يدرس فى الجامعــة . ذلك هو « انتوان كاندولا » .

وتبادل « ايسبالدى » و « كاندولا » الثقة ، وصارح كل صــاحبه بما فى صــدره ، فلما تبينا ان غايتهما واحــدة ، لم يسمحا للغيرة بأن تثير كل منهما على الآخر ، بل شــعرا بأن وحدة الغاية خليقة بأن تقرب بينهما ، وأن الكراهية المشتركة التى ساورتهما نحو « سان رومان » قمينة بأن تحملهما على أن يتعاونا فى سبيل ازاحته عن الطريق .

وهكذا ضمت (تولوز) اربعة رجال طووا صدورهم على حب طاغ لفيولانت ــ ورغبة جامحــة فى انقاذهــا ــ وعلى كراهية لزوجها ، وتلهف على التخلص منه : كهلين لم يؤتيــا

قوة على أن يعملا بنفسيهما ، ولا كانت مكانتهما الاجتماعية تسمح لهما بذلك ، ولكنهما أوتيا مالا لا يضنان به فى سبيل الغانية السمراء .. وشابين اوتيا القوة والجراة .. الجراة على أن يرتادا مواخير المدينة ، وأن يتصلا بحثالة القوم .

وكان « ايسبالدى » بحكم عمله على معرفة ببعض الاشقياء ، فاختار أشدهم بأسا ، واغلظهم قلبا ، وكان معروفا باسم « ذى الذراع الحديدية » ، واختلى به بعيدا عن الأنظار والاسماع ، وافضى إليه بالخطة التى رسمها مع « كاندولا » ، دون أن يذكر اسمى العاشقين الكهلين اللذين رصدا مبلغا ضخما لهذه المغامرة .

وتدبر « ذو الذراع الحديدية » الأمر ، ثم قرر أن يستعين باثنين من زملائه .. واصبحت الخطة معدة ــ بأدق تفصيلاتها ــ للتنفيذ ، فلم يبق سوى استدعاء « سان رومان » إلى (تولوز) . وقد اضطلع القاضى بهذا الجزء من المؤامرة ، فكتب إلى المحامى الريفى متذرعا بحرصه على مستقبله ، زاعما ان ثمة وريثا واسع الثراء قد أقحم فى نزاع مع أقارب له ارادوا ان يشاطروه ثروته .. وابدى له رغبته فى أن يتولى هو الدفاع عن ذلك الوريث .

ينصبون له الفخ !

وإذ تلقى « سان رومان » الرسالة ، اوحت إليه غريزة خفية بأن يرفضها ، ولكن « فيولانت » راحت تستحثه على القبول ، وتغريه بما قد يلقاه من نجاح .. ومع انه لم يكن يثق فى صدق اهتمامها ، إلا انه شاء ان يتحرى حقيقة الأمر ، فان كان وراءه خير حقا ، لم يفوته على نفسه .

وهكذا غادر « سان رومان » بلدة (جيمون) فى ساعة جد مبكرة من صباح اليوم الثالث من يوليو ، ميمما شطر (تولوز) على صهوة بغل !.. حتى إذا بلغها ، سعى اولا إلى شارع (دى فيلاتييه) ، حيث كان القاضى « جايرو » يقيم ، وتلقاه القاضى مرحبا ، واصر على أن يستبقيه للعشاء ، ودعا الأستاذ « بيردو » إلى أن يشاطرهما المائدة ، فكان وجود هذا حجة أعفت القاضى من أن يتحدث إلى « سان رومان » عن القضية ، وأن وعده بأن يطلعه على ملفها ومستنداتها فى يوم آخر .

وفى اليوم التالى ، استضاف ايسبالدى المحامى الريفى . وفى اليوم الثالث دعاه استاذ اللاهوت إلى مائدته .. وعجب « سان رومان » لهذه الحفاوة البالغة . وكان كلما تساءل عن القضية ، قيل له فى رفق أبوى : « فيما بعد ! .. لا يزال فى الوقت متسع ! » .

واخيرا ، اقام القاضى حفلة عشاء ــ فى اليوم الثامن من يوليو ــ دعا اليها زملاءه الثلاثة ، كما دعا المحامى الريفى . حتى إذا مدت المائدة ، تبين الجميع أن أستاذ اللاهوت لم يحضر . .ولم يدر احدهم لذلك سببا . على ان غيابه لم يذهب برواء الاطعمة التى كانت من اشهى الألوان ، والنبيذ المعتق الذى أريق دون حساب .

وراح التولوزيون الثلاثة يبالغون فى الحفاوة بضيفهم الريفى ، فكلما ملئوا كؤوسهم مرة ، ملئوا كأسه مرتين .. حتى إذا رفعت المائدة أخيرا ، احس « سان رومان » بان

معدته قد اكتظت ، وراسه قد خوى .. ودب فى اوصاله خدر مستعذب . وتظاهر الآخرون بأنهم يشعرون بالشعور ذاته ، فاقترح احدهم ان يخرجوا ليتمشوا فى الهواء الطـلق ، عسى ان يرد إليهم نسيم الليل نشاطهم .

ولقى الاقتراح استحسانا ، فانطلقوا جميعا إلى ضفة نهر (الجارون) ، وراحوا يسيرون على مهل مستروحين الهـواء العليل ، حتى بلغوا اقصى اطراف المدينة ، ولم يبق بينهم وبين طلائع الريف سوى دير شاهق الاسوار ، قام وسط الظـلام رمزا مبهما للعزلة الموحشة !

وفجاة ، خرج عليهم من أطواء الظـلام ثلاثة اشـخاص انقضوا عليهم على غـير توقع .. واسـلم « ايسـبالدى » و « كاندولا » سـيقانهما للريح ، وتبعهما « جـايرو » بكل ما أسعفته الشـيخوخة من قوة .. وبقى المحـامى الريفى التعس ، الذى كان الطعام والشراب لا يزالان يثقلان حركاته، فلم يستطع أن يفلت من « ذى الذراع الحديدية » وزميليه !

وفى الصباح التالى ، وجدت ــ على مقربة من الدير ــ جثة رجل مزقت صدره الخنـاجر ، بسبع عشرة طعنـة .. وسرعان ما ظهر انها جثـة « بيير سان رومان » ، المحـامى الذى وفد من (جيمون) .

العدالة تقتص من منتهكيها !

وكان من الممكن ان تكون الجريمة كاملة بمعنى الكلمة ، وان لا يصـل احد إلى مرتكبيهـا ، لولا ان القـدر كان لهم

بالمرصاد ، وقد ابى ان يروح دم المحامى الريفى هـدرا ! .. نعم ، كان من الجائز ان يطوى السر فى صدر الليل ــ برغم ما هو معروف من أن السر إذا تجاوز اثنين اصـبح معرضـا للافتضاح ــ لولا أن العدالة كتب لها أن تقتص من منتهـكيها .. فبينما كان « ذو الذراع الحديدية » يجرى ــ بعد ان اتم مهمته ــ إذا به يصـادف احـدى « داوريات » الشرطة ، فراب افرادها أمره ، لاسيما وأنه كان من اشـقياء المدينـة المعروفين ، فألقوا القبض عليه .. وإذا بهم يكتشفون بقعة من الدم على ثيابه ، فقـرروا اسـتبقاءه فى أسرهـم إلى أن يستوثقوا من أمره .

كذلك قدر لبعض رجال الشرطة أن يصادفوا «أيسبالدى» وهو يجرى فى طرقات المدينة مضطربا ، بادى الوجل . فلمـا استوقفوه اشتد ارتباكه .. ولما سالوه بدت إجـاباته مثيرة للريب ، فسجن هو الآخر رهن التحقيق .

وعندما اكتشفت جثة الضحية فى الصباح التالى ، لوحظ ان حافظة نقود المحامى لم تمسها يد ، فاثار هـذا دهشـة وتساؤلا : إذا لم تكن السرقة هى الباعث على الجريمة ، فما هو الباعث إذن ؟ .. وبدا أن ثمة سرا غامضا يكتنف الحادث . واتجهت انظار المحـقق ــ السيد دى سيـجلا ــ إلى « ذى الذراع الحديدية » ، وإلى « ايسبالدى » ، فان الظروف التى اعتقل فيها كل منهما كانت تدعو إلى الشك فى امره . ولـكن الاسئلة التى وجهها المحقق إلى كل منهمـا لم تسـاعد على إجلاء السر .. فهل ينتهى الأمر عند هذا الحد ؟

لا ، فقد كان لدى الســلطات ـــ فى ذلك العهــد ـــ من وسائل العنف والقسوة ما يفك عقدة اى لسان ! .. وما إن جربت هذه الوسائل مع « ذى الذراع الحديدية » ، حتى اتهم « ايسبالدى » بانه المحرض . فلما جربت مع « ايسبالدى » لم يلبث أن اتهم ـــ بدوره ـــ الاســتاذ بــيردو بانه مصــدر التحريض .. وكان « بيردو » متغيبا عن المدينة ، ولعل هذا كان سبب عدوله عن حضور مأدبة العشاء .. ولعلها كانت حيلة ماكرة منه ، ليكون بعيدا عن مسرح الجريمة ، فلا تتجه إليه اية شبهة !

وكان من الجائز ان تفلح حيلته ، فان المحقق تردد ازاء غياب الرجل عن المــدينة ، وازاء مكانته كاســتاذ جامعى ، واستاذ لعلم اللاهــوت بالــذات . ولكن رئيس المحققين ـــ السيد نيكولا دى فيردون ـــ لم يشأ أن يسمح لاى اعتبار بأن يفوت على الســلطات اية فرصة قد تفيد العــدالة .. وكان « دى فيردون » معروفا بحزمه ، وبنزاهتــه ، وبانه لم يكن يعترف بأى مركز أو سلطان ـــ فى سبيل العدالة ـــ ولا كانت تاخذه باى مشتبه فى أمره رحمة ولا شفقة . فلم يتردد فى أن يامر بالقاء القبض على استاذ اللاهــوت بمجرد عــودته إلى المدينة .

التعذيب يطلق الألسنة !

ووقف « بيردو » أمام المحقق فى وقاره الدينى والعلمى ، متذرعا بمكانته ، محتجا بمنصبه ، مراوغا متشبثا بمراوغته . فلم يتورع السيد « دى فيردون » عن ان يسلمه إلى الجــلاد

الذى أوسعه تعذيبا ، حتى أنطلق لسانه فى النهاية ، فاذا به يكشف عن علاقته بفيولانت ، وعن علاقة جايرو بها ، وعن الاتفاق الذى جرى بينه وبين القاضى الكهل ، وما انتهى إليه رأيهما من ضرورة اختفاء المحامى الريفى لكى يستعيدا خليلتهما ويخلو لهما الجو معها !

وإذ اعترف « بيردو » بكل هذا ، تجلى الحــافز عــلى الجريمة ، ورفعت الأوراق إلى السيد « دى فيردون » ، فأمر بالقاء القبض على « جايرو » ـــ فى ١٨ أغسطس ـــ وعــلى « فيولانت » ، بعد ذلك بثــلاثة ايام .. وسرعان ما ضــمت جــدران ســجن « شاتو ـــ ناربونيه » الــعتيق كانة الذين اشتركوا فى الجريمة .

وشاع نبأ الفضيحة فطبق ارجاء المدينة ، وتجاوزها إلى الأقليم الذى كانت حاضرته .. وزاد من وقعها على النفوس أن كهلين وقورين ـــ مثل القاضى واستاذ اللاهــوت ـــ قــد سمحا لنفسيهما بأن يهويا إلى درك الإجرام ، حبا فى ســواد عينى غانية سمراء لم تكن سمعتها فوق الشبهات ، وذهبا فى غيهما إلى درجة التغاضى عن جلال منصبيهما ، والتعامل مع اشقياء مجرمين مثل « ذى الذراع الحديدية » وزميليــه ، من اجل بلوغ مآربهما المرذولة !

ولم يعد من حديث للقوم سوى هذه القضية ، وثار شعور الراى العام ، فلم يبد احد ادنى عطف نحو المتهمين فيهــا .. وكان القاضى واستاذ اللاهوت اكثر هؤلاء المتهمين نصيبا من السخط العام !

وعرضت القضــية أمام المحكمة فى ٢٠ ديسمبر ، فظلت الجلسات تتعاقب حتى نهاية يناير سنة ١٦٠٩ .. ثم صــدر الحكم باعدام المتهمين جميعا ، ليكونوا عبرة للناس !

الندم والاستغفار .. بعد فوات الأوان !

وكان « بيردو » أول من سيق إلى الأعدام — فى ميــدان (سان جورج) — فى ١٥ فبــراير . وقد ظل حتى اللحظــة الأخيرة يلقى الحكم والمواعظ الدينية .. وعنــدما طافت به عربة مكشوفة ارجاء المدينة ، قبل أن يقاد إلى الميــدان ، لم يكف عن الخطابة فى الجموع التى احتشدت لمشاهدته ، مذكرا إياها بتعاليم الدين ، وعواقب الغى والإجرام ، معــربا عن ندمه ، مستغفرا لذنبه !

وتبعه الأستاذ « جايرو » فى اليوم التالى ، فــكان على النقيض منه ؛ إذ ظل صامتا ، واجما ، متشبثا بوقاره ، حتى وهو يسلم راسه لسيف الجــلاد ! وتلاه فى الــدور كل من « ايسبالدى » و « كاندولا » .. وكانت الغانية البرتغاليــة السمراء — ذات السحر الذى لا يقاوم — هى آخر من صعد منصة الاعدام من المتهمين .. ولعل علاقتها ببيردو كانت قد اكسبتها بعض خصاله ، فقد ابت إلا ان تخطب القوم قبل ان يطيح سيف الجلاد براسها ، وراحت تعظ النساء وتحذرهن من أن يقدمن على خيانة ازواجهن !

و .. وأسدل الســتار على ماساة من مآسى الهــوى والإجرام ! .. ماساة حبكت خيوطها ونفذت ، من اجل عينى غانية سمراء !



اغرب .. من ((الف ليلة وليلة)) !

عزيزى القارىء ..

فى الفصل السابق رويت لك قصة لقائى مع هذا الكتاب الشائق ، فى قسم الكتب من محل (بون مارشيه) بمدينة بروكسل .. وكيف جذبنى ـ أول ما جذبنى ـ عنوانه الذى يمنى القارىء بجولة واسعة فى تاريخ الجريمة والعقاب أمام القضاء الفرنسى ، فى مختلف العصور .. لا سيما وان جميع المحاكمات التى تناولها الكتاب كانت عن جرائم ارتكبتها « نساء » ! .. وهكذا يتيح لنا الكتاب ان نرى كيف تستطيع « الأيدى الناعمة » ان تتحول احيانا إلى ايد « قاتلة » ، متوحشة ، مخضبة بالدماء ، بدلا من الحناء !.. وان نلمس الدوافع التى تجعل الحب ـ والحب الصادق ، المضحى ، فى كثير من الأحيان ! ـ قديرا على أن يقود ، من فرط عنفه ، إلى الجريمة !

بل ان هذا الكتاب ـ الذى جمع مؤلفه مادته من سجلات المحاكم واضابير المحققين ـ يرينا نماذج فريدة ، واقعية ، صارخة ، من ظواهر الحياة الحافلة بالمتناقضات .. يرينا كيف ان المراة ، التى تكون أحيانا مصدر الحب ، والحنان ، والتشجيع الذى يدفع الرجل إلى قمة المجد .. تكون فى احيان اخرى مصدر شقاء الرجل ، وعذابه .. بل مصدر الالهام الذى يدفعه إلى الإجرام !

وقد قدمت لك فى الفصل السابق الحلقة الأولى، او المأساة الأولى من المآسى الواقعية التى جمعها فيه مؤلفه الباحث

الفرنسى « روجيه ريجى » ، وكانت مأساة الغانية السمراء « فيولانت » ذات العينين الساحرتين ، التى عاشت فى مدينة (تولوز) فى القرن السابع عشر ، والتى قادت إلى الجريمة رجلين من خيرة رجال المدينة ، بل شيخين من أكثر شخصياتها وقارا واتزانا : احدهما قاضى محكمة المدينة الأستاذ « فرانسوا دى جايرو » ، والثانى عالم دينى و « دكتور فى اللاهوت » من أساتذة جامعة تولوز ، هو « البروفيسور بيير آريا بيردو » !

واليوم اقدم لك فيما يلى الحلقة الثانية من الكتاب ، وهى تنطوى على مأساة أخرى تكاد من فرط غرابتها ان تنقلب إلى ملهاة مضحكة من اقاصيص « الف ليلة وليلة » ، لولا ان المؤلف قد استقاها من السجلات الرسمية لقضاء مدينة (روان) الفرنسية ، فى القرن السابع عشر ايضا ..

فتعال نقرأ معا هذه القصة العجيبة من قصص الغرام والاجرام :

* * *

هيلين .. حسناء (روان) !

كل شىء جائز فى الجريمة ، ولو كان يفوق الخيال ! .. هذا ما تبينه اهالى مدينة (روان) ، الذين حدا بهم الفضول إلى أن يتدفقوا ـ رجالا ونساء ـ على قاعة محكمة الجنايات، فى احد أيام شهر ابريل سنة ١٦٢٨ ، ليشهدوا محاكمة السيد « اوجستان ميرى » وزوجته .

وما كان اهتمام القوم موجها إلى السيد « ميرى » بقدر ما كان موجها إلى زوجته . فقد كان هو رجلا ككل الرجال ، لا تكاد يميزه عن سنواه شىء .. ولكن الفضول ، والاهتمام ، والسخط ، والاعجاب ، وطائفة من المشاعر المتضاربة المجتمعة — فى آن واحد — اخذت توجه الانظار إلى الزوجة الشابة التى جلست فى قفص الاتهام .. وكانت ذات جمال غير عادى ، تحمل اسم الفاتنة الإغريقية التى كانت سببا فى حرب طروادة : « هيلين » !

كانت هيلين حسناء (روان) فى العام الحادى والعشرين من عمرها ، ذات شعر اشقر مسترسل ، احاط — كاطار من ذهب — بوجه ذى قسمات دقيقة ، رشيقة ، متناسقة ، وعينين فى زرقة السماء الصافية ، تشعان ببريق يضفى على الوجه براءة الطفولة الساذجة .. ترى كيف قدر لمثل هذا الجمال ان يزف — قبل سنوات ثلاث — إلى زوج قمىء الشكل ذى لحية غير مهذبة ؟ .. الواقع أن الأمر لم يكن لغزا عويصا . فلقد ولدت « هيلين » فى أسرة مدقعة الفقر ، ونشأت فى احضان البؤس والمسغبة . وكانت مشاهد العز والرفاهية تثير فى نفسها طموحا طاغيا ، وتحملها على ان تحلم بزوج ثرى يهيىء لها ما يحقق طموحها .. لذلك لم تتردد فى قبول « ميرى » حين عرض عليها الزواج ، إذ كان يملك ثلاث سفن يؤجرها للنقل ويستخدمها فى التجارة ، وقد جمع من وراء ذلك ثروة كبيرة .. كبيرة فى نظر « هيلين » على الأقل !

وهكذا تزوجا ، وانتقلت العروس للاقامة فى دار زوجها بشارع (دى هالاج) ، الذى يمتد بين نهر السين والكاتدرائية

الكبيرة . وبلغ من عرفانها بفضل « ميرى » انها لم تكن تدخر وسعا فى سبيل اطلاعه على مدى تعلقها به ، وفى اضفاء كافة الوان الرعاية والخدمة له ، وفى تهيئة أحلى المتع له ، حتى انه اصبح يشعر كأن الشباب قد ارتد إليه ، وهو الذى كان قد بلغ الخمسين من عمره .

المصائب لا تاتى فرادى !

وسارت حياتهما هادئة ، ناعمة ، موفقة ، يحف بها الحب والإخلاص ، وتشيع فى جوها الهناءة والسرور . إلى أن كان خريف سنة ١٦٢٦ ، وإذا بسوء الحظ يوقع بميرى ضربة قاصمة . فان السفن الثلاث التى كانت مصدر ثرائه ، ضاعت تباعا .. إذ غرقت احداها لأنها كانت جد عتيقة .. وشب فى الثانية حريق ، فلم يتسن انقاذها .. وهاجمت عاصفة السفينة الثالثة ، فلم يقع احد لها على اثر بعد ذلك ! وكاد الرجل ان يجن إذ منى بهذا الخراب فى فترة وجيزة ، بعد ان كان اطمأن إلى الحظ ، وارتاح إلى الحياة . وزاد من نكبته انه فقد الشطر الأكبر من ثروته فى الخلافات القضائية التى ترتبت على مصائر السفن ، وعلى ضياع ما كانت تحمل من بضائع كان بعضها ملكا للغير ، والبعض الآخر ملكا له ولكنه لم يكن قد سدد ثمنه ، فتسابق أصحاب الديون إلى محاولة الحصول على ما لهم لديه قبل أن يصبح معدما !

وهكذا الفى « ميرى » نفسه فى الحضيض ، بين عشية وضحاها ! .. شىء واحد ، بل شيئان بقيا له : البيت الذى كان يقيم فيه ، ووفاء زوجته التى راحت تسرى عنه وتخفف

من اساه ، وتشحذ من عزيمته ، قائلة له : « لا تحزن ، فلن يكون القدر بهذه القسوة إلى الأبد . وإلى ان يعاودنا السرور ويواتينا الفرج ، إليك الحلى والمجوهرات التى كنت قد اهديتنيها ، فان ثمنها يكفى لكى نواصل العيش فى وضع كريم ! »

ولم يملك « ميرى » أن يرفض ما عرضته زوجته عليه ، وهو فى اقصى حالات التأثر ، وقد ازداد اعجابا بها ، وتقديرا لها ..

وسارت الأحوال على نحو محتمل ، فترة من الزمن ، وعمد الزوجان إلى تسريح خدمهما ، وإلى الاقتصاد فى نفقاتهما .. وأخذ « ميرى » يسعى هنا وهناك ، محاولا ان يجد من اصدقائه القدامى عونا يمكنه من أن يعاود العمل والتكسب ، ولكن أصدقاء الرخاء تنكروا له فى الشدة ، فلم يوفق فى مساعيه .. وراح المبلغ — الذى حصل عليه من بيع حلى زوجته ومصوغاتها — يتسرب من بين اصابعه حتى اوشك ان ينفد . واشتد به الضيق ، فراح يقاوم جاهدا ، ولكن جميع السبل سدت فى وجهه !

واطبقت على «ميرى» اخيرا ظلمات اليأس ، فاخذ يتخبط فى دياجيرها ، وعميت عليه الأفكار المشرقة ، واصبح يفكر على غير هدى . وذات مساء ، خطرت بباله فكرة حاول ان يطردها عن راسه ، ولكن دون جدوى ، فلم يلبث ان قال لزوجته : « ان بوسعك ان تقدمى لى عونا كبيرا فى محنتنا هذه .. فكم بهر جمالك من انظار ، وكم سبى من قلوب .

وانى لأعرف كثيرا من عليه القوم يتمنون ان ينزلوا عن الكثير فى سبيل القرب منك ! »

وشهقت « هيلين » مأخوذة ، وقد صدمت بقوله ، فاسرع مستدركا : « لا تظنى اننى قد فقدت عقلى ، او اننى اتهاون فى شرفى وأفرط فيك . بل إننى اعتز بحبك ، واتشبث بوفائك . ولكن بوسعك — وانت ذكية اريبة — ان تغرى أى رجل فتظهرى له من الود ما يجعله يمنى نفسه الأمانى ، فيغدق عليك الهدايا ، ويتفانى فى ارضائك ، ثم لا يظفر فى النهاية بمأرب ! .. فاذا انت اتقنت هذا الدور ، سنحت الفرص لتحسين حالنا ! »

ولكن الزوجة الشابة استنكرت من زوجها هذا التفكير ، وحزنت اشد الحزن ، ورفضت أن تستمع إلى مزيد .. حتى إذا اشتد الضنك ، وخيم على البيت شبح المسغبة والجوع ، عاد الزوج يغرى زوجته بخطته .. وفى هذه المرة اصغت له ، لكنها ظلت على رفضها .. فلم يلبث أن قال يائسا : « اذن ، فلم يبق امامى سوى ان اضع حدا لحياتى التعسة هذه ، فاموت ! » .. وفى غمرة القنوط ، اعد حبلا اعتزم ان يستخدمه فى الانتحار .

وجزعت « هيلين » ايما جزع ، فهى لم تنس بعد ان « ميرى » قد انتشلها من وهدة الفقر ، واكرمها ، واغدق عليها الخيرات أيام الرخاء .. ثم انه — حتى فى محنته — كان وقاء لها من كثير من الشرور والمكاره ، ولو غاب عن حياتها لهوت إلى حضيض التشرد فى الطرقات والتسول ! .. ومن

ثم لم تلبث ان سلمت بأن خطته شر ليس منــه بد ، وبــلاء مؤقت ، ريثما تتحسن احــوالهما . وهــكذا قبلت أن تقــوم بالدور على مضض ، ممنية نفسها بأن لها من قوة اعتصامها بالشرف ما يجنبها الزلل .. ومن ثم اخذا يستعرضان أسماء « الضحايا » الذين يحتمل ان يفيدا منهم !

وفجأة ، دق « ميرى » جبينه براحة يده ، وهتف وقــد ابرق فى ذهنه خاطر : « لماذا نذهب بعيدا ، ولدينــا رجــل سلس القياد ، فى البيت الملاصق لبيتنا ؟ .. اجــل ، لماذا لا نبدأ المحاولة بالأستاذ جريزيو ؟ »

وكان « ليونار جريزيو » محاميا ناجحا ، ورث عن ابويه ثروة طيبة ، ضاعفها بجده فى المحاماة .. وقد كان فى عنفوان الشباب ــ فى حوالى الثلاثين من عمره ــ انيقا ، مليحا ، ذا جولات فى دنيا الهوى تفوق جولاته فى ميادين القضــــاء .. ثم أنه كان جد قريب ، إذ كان بيته يلاصق دار الزوجين فعــلا .

واستعرضت هيلين كل هــذه الاعتبــارات ، ثم نكست راسها ، وتمتمت فى استخذاء المغلوب على امره : « ما دامت هذه مشيئتك ، فسوف أعمل على ارضائك ، مهما اتكبــد فى هذا السبيل . ولكنى ارجو ان تتــذكر دائما اننى لن افعــل هذا إلا من اجلك انت ! »

عندما يذوب الجليد !

وكان من السهل على الشابة الجميلة ان تغوى جارها ، فلقد كان الشــارع ــ ككل شوارع الحى فى تلك الأيام ، أيام

لويس الثالث عشر ــ ضيقا ، حتى لقــد كان فى وســع من يبسط يده من نافذة احدى الدور ، أن يمس يد جاره فى البيت المقابل . وكانت تفصل البيوت القائمة على صــف واحــد ، افنية كثيرا ما كانت تتصل فيما بينها بأبواب صغيرة ، لعلهــا كانت نوعا من وسائل الاحتياط للطوارىء ، كأن يشب حريق فى دار ، فيستطيع اهلها ان يلوذوا بفناء الدار المجاورة .

والواقع أن جمــال « هيلين » لم يكن سرا خافيــا عن المحامى الشاب المجاور .. فقد كان يشهد الجارة الشابة ــ فى كل صباح ــ وهى فى مخدعها ، او فى فناء دارها ، او وهى تنتقل بين حجراتها .. ولقد حاول مرارا أن يجتذبها اليــه ، بالابتسام أو بمحاولة تحيتها ، ولكنه لم يكن ــ فى كل مرة ــ يحظى منها ولو بنظرة واحــدة ، حتى يئس منها ، فلم يعــد يشغل بها .

على أنه فوجىء بالحال تتغير فى اوائل شــهر مايو .. إذ لاحظ ان الزوجة اصبحت تولى نوافذ داره بعض نظراتهــا ، وان طيف ابتسامة واهنة كان يتبدى على شــفتيها . ولــكن الأمر لم يتجاوز هــذه الحــدود ، فلم يكن يجد ما يطمعــه فى مزيد .

إلى أن كان ذات صباح ، إذ راى « هيلين » تغادر دارها ، وتغلق الباب خلفها بالمفتاح . ثم ســارت فى طريقهــا ، وإذا المفتاح يقع منها فى الطــريق .. وكانت فرصــة لا تعوض ، فاسرع والتقطه ، ثم هرع خلف الحســناء وقــدمه اليها ، فشكرته فى حرارة .. واردفت : « ما إخالك تتصور يا سيدى

مدى الصنيع الذى اسديته لى ، فان زوجى قد سافر ، ولن يعود قبل المساء .. فماذا كنت ترانى صانعة لو لم تعثر على المفتاح ؟ »

ولم تكن هذه العبارات اكثر من مجاملة عادية ، ولكن اللهجة التى بدرت من هيلين ، والابتسامة التى اشرق بها محياها ، خلبا لب « جريزيو » ، وبعثا فى نفسه المشاعر التى راودته من قبل نحو جارته ، والتى جهد فى ان يكبحها حين لم يجد من المراة تشجيعا .. فأجابها هذه المرة فى عبارات منمقة ، وهو يسير إلى جوارها جنبا إلى جنب .. وعاوده الأمل والرجاء ، فحرص على ان يطيل من حبل الحديث ، قائلا : « مادمت وحيدة ياسيدتى ، فيسعدنى أن أكون رهن اشارتك ! » . واتسعت ابتسامتها وهى تقول : « شكرا .. فالواقع اننى ما خرجت من البيت إلا لمجرد الرياضة » .

ـ اذن ، فهلا شرفتنى فسمحت لى بأن أسير فى ركابك ؟ .. إن الطقس صحو اليوم ، وانه لانسب الايام لنزهة خلوية، فهلا سمحت لى بان اصطحبك إلى الخلاء ، فنتمشى على ضفة النهر ، ونحظى بالهواء الطلق العليل ، ثم نعرج ـ فى عودتنا ـ على أحد المشارب الخلوية ، فتسعدينى بان تقبلى منى بعض الشراب المرطب ؟

وابدت ترددا ، كما تفعل كل امراة شريفة تواجه اغراء الشيطان ، ثم انتهى بها الأمر إلى قبول العرض فى استحياء وارتباك . ويمما شطر نهر (السين) .

ولم تعد « هيلين » الا والنهار يحتضر .. ولكى لا يفطن احد إلى ما كان بينهما ، حرصت على ان تكون وحيدة فى عودتها ، ولم يرجع « جريزيو » إلى داره إلا ليلا .. ومع انه لم يحظ باكثر من الامساك بيد الزوجة الحسناء ، والضغط على راحتها البضة الطرية ، إلا انه لم يعد يشك فى انه لن يلبث ان يوفق إلى كسب قلب « هيلين » .. وأصبح يرصد حركاتها من نافذته ، فما من مرة رآها تغادر بيتها وحيدة الا اسرع إلى اللحاق بها ، متظاهرا بأن المصادفات وحدها كانت تسوقه إلى لقائها !

اكياس النقود تتوالى .. دون مقابل !

وكثرت أسفار الزوج ، فكثر لقاء « هيلين » و « ليونار جريزيو » ونزهاتهما . وذات يوم ، اطاعت الشابة إلحاح جارها ، وذهبت معه لمشاهدة إحدى الفرق التمثيلية الهزلية .. وكان الزحام شديدا ، فلم يجد جريزيو بدا من ان يطوق خصرها بذراعه لكى يقيها وطأة التدافع .. وشيئا فشيئا ، اخذ يشد ذراعه حولها .. ثم ظلت ذراعه حولها فى عودتهما. ولم يلبث ان مال على الحسناء فقبلها ! .. وكانت هذه بداية مرحلة جديدة فى علاقاتهما . مرحلة اباحت لهيلين ان تفضى إلى حبيبها ببعض همومها ، فراحت تشكو له من غيرة زوجها ، ومن بخله وشحه ـ حتى انه كان يقتر عليها فى الطعام واللباس وأدوات الزينة ! ـ وما كان المحامى الثرى العاشق ليطيق أن تعانى حبيبته هذا ، فأصبح يوافيها ـ فى لقاءاتها ـ وقد حمل كيسا متخما بالنقود ، حتى إذا آن لهما ان يفترقا ،

دس الكيس فى يدها .. وكانت تحتج وتعارض فى استحياء واستنكار ، ثم تنتهى إلى قبول الكيس ، لتسلمه بعد ذلك إلى « ميرى » ، الذى استمرأ هذا الكسب السهل ، فأخذ يشجعها على المضى فيه !

وانقضت شهور دون أن يظفر « جريزيو » من فاتنته بأكثر من شفتيها .. فأخذ يزداد الحاحا فى طلب المزيد . وكانت هيلين تعده وتخلف ، ثم تتظاهر باللين لتعود فتصد وتقاوم . والواقع ان هذا المسلك منها لم يكن سوى مجرد حيلة . ذلك لأن الوان الرعاية التى كان ليونار المستهام يحيطها بها ، بدأت تحدث آثارا فى نفسها ، فلم تلبث ان راحت تقارن بين جماله وقبح زوجها ، وبين شبابه وكهولة « ميرى » ! .. واخذ الألم الذى كان يتبدى على محياه كلما صدته ، يفرى قلبها ، فأصبحت تتلطف معه ، وتتسلل فى كثير من الأيام إلى داره خفية ..

وذات يوم ، تعمد المحامى أن يقصى خادمه عن الدار فى الموعد الذى كان قد اتفق فيه مع هيلين على أن توافيه . وما إن ولجت هيلين داره ، حتى اطبقت عليها ذراعاه فى وجد محموم .. ونسيت المراة نفسها فى حرارة احضانه . وعندما غادرته ، كانت تلوم نفسها على أن ضيعت كل ما فات من وقت ، ففوتت على نفسها ما اكتشفته فى ذلك اليوم من متع وملذات !

ودامت غرامياتهما ـ فى تكتم بالغ ـ طيلة الصيف ، وهيلين مواظبة على اعطاء زوجها ما كانت تتلقاه من عشيقها

من منح سخية ، والزوج مغتبط قرير ، مطمئن إلى عفة زوجته ووفائها ، مرتاح إلى أنها كانت من البراعة والدهاء بحيث اوقعت الجار المحامى فى شباكها ، دون أن تنيله وطرا .. فقد كان موقنا من انها ـ بعد كل ما أبدته من معارضة فى البداية ـ ما كانت لتحيد عما قطعته على نفسها من وعد بأن تظل وفية له .

وفى تلك الاثناء ، كانت نشوة الهوى قد استخفت « جريزيو » ، فلم يعد يقنع بأن توافيه حبيبته فى داره ، بل إنه اصبح يجازف بالتسلل إلى دارها كلما اطمأن إلى غياب زوجها .. ولقد استقبلته هيلين ـ فى البداية ـ مستاءة ، خائفة ، وجلة . بيد انها لم تلبث أن رضيت عن مسلكه ، لاسيما حين اقبل الشتاء بأمطاره وعواصفه ، ولم يعد فى وسعها هى أن تذهب إليه !

غضبة مفاجئة .. للشرف !

إلى أن كان ذات مساء ، وقد اسكر الهوى العاشقين ، وإذا الزوج يعود إلى داره بغتة ، فيفاجئهما .. وكان غضبه اعتى من كل ما يخطر بالبال ، ومن كل ما يرتقب من زوج كان هو الذى راح يدفع زوجته حتى اضطرها إلى الانزلاق ! .. وكانت فى يده عصا ثقيلة ، فهوى بها على راس « جريزيو » .. واختلج جسم المحامى الشاب ، ثم همد وقد فارقته الحياة !

وافاق الجانى من هياجه ، فجزع ، وارتبك ، وارتعدت فرائصه ، بينما اخرس الحادث « هيلين » وشل حراكها ،

وشتت بالها فلم تعد تقوى على أن تفكر فى شىء .. وانما راحت تحملق فى الجثة ، وفى زوجها ، بنظرات ملؤها الفزع والذهول !

وإذ تمالك « ميرى » بعض رباطه جاشه ، أخذ يزن تبعات فعلته . فلم يلبث ان هتف بزوجته : « حذار ان تنبسى بكلمة ، او تطلقى صرخة ، والا الحقتك بعشيقك ! .. وفيما عدا ذلك . فسأتكفل انا بكل شىء ! »

وكان بوسعه ان يدع الجثة حيث كانت ، وان يدعى انه قتل المحامى الشاب فى سورة الغضب لشرفه وعرضه ، ولكنه خشى ما قد يخوضه من متاعب ومضايقات إلى ان يثبت براءته .. وخشى فوق هذا ان تفضحه زوجته متعمدة ، او تحت وطأة الخوف من إجراءات السلطات .. لذلك قرر أن يتخلص من الجثة ، بأسرع ما فى وسعه ، وفى تكتم تام ..

لعنة القتيل .. تلاحق القاتل !

إلى هنا والمأساة عادية ، كغيرها من مآسى الهوى .. ولكن المرء سيجد – فى المراحل التالية منها – الدليل على ان كل شىء جائز فى الجريمة ، ولو كان يفوق الخيال .. بل ولو كان مما يأبى العقل ان يصدقه !

ذلك ان « ميرى » اسرع فحمل جثة ضحيته على كتفيه ، ودلف بها خلال الباب المفضى بين فناءى داره ودار «جريزيو» ثم سار فى حذر ، والقى بالجثة على الأرض المرصوفة بالحصباء ، امام سلع الدار ، بحيث تبدو وكأنما انزلق صاحبها

– وهو يصعد السلم – فهوى ، وارتطم رأسه بالأرض ، ولعل الأمور كانت تسير كما تخيلها « ميرى » ، لو لم يكن خادم « جريزيو » رعديدا ، جبانا .. فقد صدرت عن « ميرى » بعض الضوضاء ، وهو ينسحب عائدا إلى داره – برغم كل حذره – فاذا الخادم « مارتان » يستيقظ من نومه ، واسرع فحمل مصباحا ، وهبط إلى مدخل الدار .. وهناك ، فوجىء بمولاه مسجى على الأرض : مهشم الرأس ، فاقد الحياة !

وانحنى عليه يفحصه ، فراى الجرح ، وتبين بجلاء انه انما حدث نتيجة ضربة عنيفة بعصا ثقيلة . وتولاه الجزع إذ خيل إليه انه قد يتهم باغتيال مخدومه ، ولكى يتخلص من كل شك قد يتجه إليه ، حمل جثة القتيل – بعد ان اطمأن إلى خلو الشارع من المارة – وهو لا يفكر إلا فى وضعها بعيدا عن البيت .. ولكن ، اين ؟ .. ولم تطل به الحيرة ، فوسد الجثة مدخل دار « اوجستان ميرى » المجاورة ، ثم تسلل عائدا .

وراعت « ميرى » الحركة الخفيفة التى تناهت إلى أذنيه فى هداة الليل ، ففتح النافذة المطلة على مدخل داره ، وإذا به يفاجأ بجثة ضحيته ، وكأنها اسرعت بالعودة لتتهمه ! .. واشتد به الاضطراب .. لا بد له من أن يتخلص من هذا الخطر الداهم ، مهما يكن الثمن . ولكن ، كيف ؟

ولم تسعفه القريحة الا بفكرة واحدة .. تلك هى ان يحمل الجثة فى كيس – والليل لا يزال باسطا ظلامه – فيلقى بها فى احضان نهر (السين) ، فلا يلبث التيار ان يحملها إلى البحر ، ولا يبقى لها اثر ! .. وهكذا حمل « ميرى » جثة

ضحيته وراح يتسلل فى أطواء الظلام ، يخطو فى حذر ، ويلوذ بالجدران متواريا ، وهو يسعى نحو النهر ..

ولم يبتعد كثيرا حتى سرت إلى سمعه همسات مكتومة ، ووقع خطوات . وأيقن ان رجال الشرطة يطوفون بالشوارع، فى جولاتهم الليلية ، فاسرع إلى حارة ضيقة معتمة ، حيث توارى فى مدخل احد البيوت ، وهو يمسك انفاسه .. والخطوات تقترب باضطراد . وما لبث أن مر به اصحابها ، فاذا بهم ليسوا من الشرطة ، وليسوا اكثر من اثنين . وتناهت إلى أذنى «ميرى» بضع كلمات ادرك منها انهما من اللصوص . وتبين انهما كانا يحملان كيسا ثقيلا .. ولم يلبثا ان وقفا غير بعيد من مخبئه ، فاسلما كيسهما إلى الأرض ، وراحا يتداولان . وعلم ميرى من حديثهما انهما كانا قد اغارا على حانوت جزار ، فحشوا كيسهما باللحم ، ولكن الحمل ثقل عليهما . وكان أحدهما يعرف حانة قريبة ، فاقترح على صاحبه أن يتركا الكيس فى مدخل احد البيوت ، ثم يذهبا إلى صاحب الحانة فيفاوضاه فى ان يبتاع غنيمتهما .. وسرعان ما بادرا إلى تنفيذ الاقتراح .

مصادفات .. أعجب من ((حواديت)) ألف ليلة !

ولمعت فكرة فى رأس « ميرى » . فما ان اطمأن إلى ابتعاد الرجلين ، حتى سعى من مخبئه ، فوضع الكيس الذى اودعه جثة « جريزيو » ، وحمل الكيس الآخر ، واسرع عائدا إلى داره ! .. وما لبث اللصان ان عادا . وإذ هما بان يحملا كيسهما ، رابهما امره ، فاسرعا يفحصانه ، وإذا بهما

يكتشفان أنه كيس آخر ، وان بداخله جثة ! .. واسقط فى ايديهما . وكادا أن يتركاه ويوليا الادبار ، لولا ان خطر لهما ان الحانة التى فاوضا صاحبها فى شراء اللحم غير بعيدة ، وانه إذا سمع بنبأ الجثة – عند اكتشافها – سيرتاب فى انهما صاحباها ، لا سيما إذا هما لم يعودا إليه بعد ان اتفقا معه على الصفقة . وبذلك يتعرضان لشبهات لن يجدا سبيلا إلى دحضها او ردها عن نفسيهما .

فما العمل إذن ؟ .. وكيف الخلاص ؟

ولم يطل بهما التفكير ، فقد راودهما خاطر اسرعا بالاستجابة إليه .. ذلك هو ان يحملا الكيس إلى حانوت الجزار الذى سرقا منه اللحم .. وفعلا نفذا الفكرة ، ولم يلقيا عناء فى هذه المرة ، إذ كانا قد حطما اقفال الحانوت فى المرة السالفة .. وعلقا الكيس بما فيه فى احد المشاجب التى يعلق الجزار اللحم فيها ، ثم أسرعا بالانصراف !

ولا بد أن الحظ كان ناقما على المحامى القتيل ، فلم يكتف بكل ما تعرضت له الجثة – منذ اصبحت جثة – وإنما أعد لها محنة جديدة . ففى حوالى الساعة الرابعة صباحا ، خطر لصبى الجزار أن يسرق لنفسه شريحة من اللحم ، ينتقم بها مما يعانيه من شح الجزار وتقتيره . فهبط من المسكن – إذ كان يقيم مع مخدومه فوق الحانوت – وامسك بالسكين ..

وفجأة لمح الكيس ، ولم يكن قد رآه قبل إغلاق الحانوت، فعجب من امره ، وأسرع يفحص ما فيه .. وما إن رأى

الجثة ، حتى اطلق صيحة مدوية ، وخر مغشيا عليه ! ..
واستيقظ الجزار على الصرخة ، فهرع إلى الحانوت . فلما رأى الجثة دهش . ومن الطبيعى ان يكون قد ارتاب فى ان مساعده قاتل . وعبثا حاول الصبى — حين افاق — ان يشرح له الأمر .. على ان ما شغل الجزار اكثر من سواه ، هو ان الفجر كان قد اقترب ، وخشى ان يطلع النهار والجثة فى حانوته فتجر عليه المتاعب !

واحتار الجزار فى الأمر . وفتح باب الحانوت ، واطل منه ليتفقد الطريق قبل ان يقدم على شىء ، فاكتشف ان الأقفال كانت مهشمة .. على انه لم يعر هذا اهتماما ، من فرط لهفته على التخلص من الجثة . وفجأة ، سمع فرسه تصهل فى الحظيرة المجاورة ، فاذا به يحمل الكيس بجثته ، فيربطه إلى ظهر الفرس ، ثم يسوطها فتندفع تجرى على غير هدى !

قطرات من الدم ، على عتبة الباب !

وكانت الساعة إذ ذاك قد بلغت السادسة صباحا ، وغادر العمال مضاجعهم يسعون إلى كسب عيشهم .. واجتذبت الفرس الانظار وهى تجرى كالمجنونة فى الشوارع ، إلى أن تعثرت فى حجر فسقطت ، وكسرت احدى سيقانها .

ودفع الفضول بعض المارة إلى أن يتبينوا ما كانت تحمل ، فاذا بهم يجدون الجثة . وسرعان ما تعالت الصيحات ، واقبل الشرطة ، وبدىء فى التحرى والتحقيق .

وعرفت الفرس ، فاهتدى المحقق عن طريقها إلى صاحبها ، ولكن أقفال الحانوت المهشمة عززت روايته حين

زعم انه لم يكن يعرف عن الأمر شيئا على الاطلاق ، وان الفرس سرقت من حظيرته ، فلم يكن له شأن بما حملت .

وعرف صاحب الجثة ، فما إن ظهر انه المحامى « جريزيو » ، حتى ضاعف المحقق من اهتمامه . فلقد كان « جريزيو » — إلى جانب شهرته كمحام — ذا سمعة فى ميدان المغامرات الغرامية .. ولذلك رجح المحقق ان تكون وراء الجريمة اسباب تمت إلى هذه السمعة .

والقى القبض على خادم « جريزيو » .. الخادم الرعديد ، الذى أفزعه وجود جثة مخدومه فاراد أن يتخلص منها — حتى لا يتهم بشىء — وإذا بها تعود إليه ، برغم كل ما مرت به . واقر الخادم بذنبه ، تحت وطاه الخوف . اقر بانه القى الجثة عند باب الجار .. وكان من الطبيعى ان يلقى المحقق نظرة على المكان الذى قال انه وجدها عنده ، ليستبين مدى صدقه .. واجال المحقق بصره حول المكان ، وإذا بضع قطرات من الدم ترشده إلى الباب الصغير الذى كان يصل بين فناء دار المحامى وفناء دار جاره .. « ميرى » !

اتراك بحاجة بعد هذا إلى من ينبئك بما جرى ؟ .. كان من الطبيعى أن يلقى القبض على « ميرى » ، وأن تحوم الشبهات حول زوجته .. وعلى هذا الضوء راح المحقق يسأل خادم « جريزيو » ، فافضى بما لاحظه من علاقات بين مخدومه والجارة الحسناء . والقى القبض على « هيلين » هى الأخرى ..

وتكشفت الحقيقة واضحة سافرة .. اعترف « ميرى » بأنه فاجأ جاره المحامى فى احضان زوجته ، فضربه بالعصا ، وكانت ضربة قاضية .. واحست « هيلين » ان زوجها قد تخلى عنها ، وانه كشف خيانتها ليخفف من عبء الجريمة عن عاتقه ، فسارعت هى الأخرى إلى التخفيف عن نفسها ورد العبء إلى زوجها ، بان افضت بما أغراها به من خطة للاتجار بجمالها !

وافلحت « هيلين » ، بينما اخفق « ميرى » .. ولعل جمالها كان ذا تأثير على القاضى وعلى الراى العام .. فقد برئت ساحتها ، فى حين قضى بالاعدام على زوجها ..

وفى ١٩ ابريل عام ١٦٢٨ ، فى احد ميادين (روان) ، نفذ فيه حكم الاعدام .. شنقا !



عزيزى القارىء :

ما من نقمة يسلطها الله على امرىء قدر الطمع ! .. وبطلا هذه الحلقة ـ من سلسلة « نساء ومآس فى ساحة العدالة » ـ ارتبطا بزواج قام فى اساسه على أطماع ..

كانت الزوجة تطمع فى ان تجد زوجا يكون لها بمثابة سلم ترقاه إلى سماء المجتمع الباريسى ، ثم إلى حاشية لويس الرابع عشر .. وكان الزوج يطمع فى ثروة هذه الحسناء ، قبل أن يطمع فى جمالها الباهر الطاغى .. ومن طمعه وطمعها ، تولدت سلسلة من الجرائم ، انتهت بقضية اهتزت لها دوائر القضاء ، والبلاط الملكى ، والراى العام كله فى اواخر القرن السابع عشر .

وفى الصفحات التالية ، يعرض علينا « روجيه ريجى » ـ الكاتب الفرنسى والمؤرخ المحقق ـ هذه القضية الطريفة ..

ليتها اطلعت على الغيب !

استأثرت (باريس) ـ فى عهد الملك لويس الرابع عشر ـ بكل شىء ، فكانت موطن الجمال ، ومجمع النبوغ ، وقبلة كل طامع وطامعة .. من كافة ارجاء فرنسا . فما من انثى أوتيت حسنا ، وما من راس أوتى عقلا موهوبا ، وما من إنسان ابتغى جاها أو ثراء ـ رجلا كان أو انثى ـ إلا نزح إلى العاصمة ، حيث تركزت كل الفرص والامكانيات التى تساعده على بلوغ غايته ..

ولقد جمعت « مدام تيكيه » بين هذه الحوافز الثلاثة .. إذ حبتها الطبيعة بالجمال الفتان ، وبالذكاء الثاقب .. وولد الجمال والذكاء فى نفسها طموحا متوثبا ، فلم يعد لها من امل فى الحياة سوى ان تذهب إلى .. باريس !

ولو انها اطلعت على ما كان فى ضمير الغيب ، لداست هذا الأمل بقدميها الصغيرتين البديعتين ، وآثرت البقاء فى (ميتز) .. ولكن حكمة القدر تتمثل دائما فى انه يبقى نواياه اسرارا لا يطلع عليها احد !

فى رعاية عمتها ..

ولدت « انجليك نيكول كارلييه » ـ وهو اسمها الأصلى ـ فى (ميتز) ، فى سنة ١٦٥٧ ، لأب بدا حياته مستخدما فى إحدى دور النشر وبيع الكتب ، ثم استطاع بذكائه وحيلته ومهارته ان يغدو ناشرا وصاحب مكتبة .. حتى إذا وافاه الأجل ، ترك لكل من الابنين اللذين رزقهما ـ « نيكول » واخ يكبرها ـ خمسمائة الف ليرة .. وهى عملة فرنسية قديمة ، تكاد تعادل الجنيه فى المكانة ، وإن لم تساوه فى القيمة .

ولم تلبث زوجة « كارلييه » أن لحقت به ، فأصبحت « نيكول » يتيمة قبل أن تبلغ السابعة .. ولكنها كانت يتيمة غنية ، فتنافس الأقارب على كفالتها ، واستطاعت إحدى عماتها ان تفوز دون الجميع بها .. والحق انها عنيت بتربيتها وتعليمها كل العناية . وساعد على ذلك ان الفتاة اخذت تكشف ـ كلما تقدمت بها الأعوام ـ عن مواهب

فذة .. كان جمالها الفكرى لا يقل عن حسنها البدنى ، فبرزت على لداتها ، وألمت بقسط كبير من المعرفة ، وأجادت العزف الموسيقى ، وبرعت فى الرقص ، وحذقت فنون الكلام ، فاصبحت كوكبا لامعا فى الحفلات والمجتمعات التى كانت تعقد فى دار عمتها .

جمال وجلال .. ولطف !

وهكذا ، لم تكد « نيكول » تبلغ السابعة عشرة ، حتى صارت قبلة الأنظار .. فالى جانب ثروتها ـ التى لم تكن بالشىء القليل فى ذلك الحين ـ اوتيت الفتاة جمالا فذا ، وصفه أحد معاصريها بقوله : « كان حسنها مصحوبا بجلال وشمم ، مما كان يبديها كإحدى ربات الاساطير .. وكان قوامها ممشوقا ، ملفوفا ، سامقا ، يضفى عليها مهابة .. كان كل ما فيها يخلب الألباب ، ويفرض لها سلطانا على النفوس » ! .. وكانت تلطف من الجلال والمهابة نظرات رقيقة مفعمة بالود والحنان ، ولين فى الحركات والتصرفات ، وفم يفتر عن ابتسامة عذبة .. ويتوج كل هذا شعر فى لون الكستناء الصافية ، إذا انعكست عليه الأضواء ، تألق فى تموجات بديعة .

وما كانت « نيكول » ـ وقد اوتيت كل هذا الحسن ، وكل تلك المواهب ـ لتخفق فى خلب الباب الرجال ، شبابهم وكهولهم على السواء .. فكانت فتنتها تسحر كل من اتصل بها . ولم تكن عمتها بالجامدة ، ولا بالجاحدة ، فأخذت تقدم الفتاة إلى كافة الأوساط والمجتمعات التى كانت ترى فيها فرصا سانحة لبناء مستقبل شامخ .

ترفض الزواج استمراء للهو

وكان من الطبيعى ان تغرى ثروة الفتاة ـ من المال والجمال والخصال ـ كثيرا من زينة شباب (ميتز) ، ومن ذوى المكانة من شيوخها ، بالتنافس على طلب يدها . ولكن « نيكول » كانت تحرص على الرفض فى لطف لم يكن يجرح الكرامة ، ولا يثير السخط .

فهل تراها كانت قد عرفت الطموح إذ ذاك ، فتطلعت إلى زوج فوق مستوى من تقدموا لخطبتها ؟ .. أم تراها كانت قد استمرأت ان ترى الرجال يجرون وراءها ، ويسيرون فى ذيلها كالأتباع ، أو كالحاشية ! .. ليس من حقنا أن نرجح احد الاحتمالين ، او ان نقترح احتمالا ثالثا ، ولكنا نترك للأحداث ـ التى توالت فيما بعد ـ ايضاح حقيقة الأمر .

إنما يهمنا الآن ان نذكر أن الفتاة ظلت على رفضها الزواج ، والعمر يجرى بها دون ان تشعر ، حتى بلغت الثالثة والعشرين .. وهى سن كانت الفتيات يجزعن إذا بلغنها دون زواج ، فى تلك الأيام . على أن « نيكول » ـ فى حد ذاتها ـ لم تجزع ، ولم تكترث ، إذ استمرأت الحياة المتحررة ، اللاهية ، التى كانت تحياها ..لكن عمتها كانت هى التى جزعت ، وحملت الهم خشية ان تمنى « نيكول » بأن تظل عانسا ، فراحت تعمل ـ من ناحيتها ـ على البحث عن زوج يروق للفتاة .

خطيب من باريس

وتصادف ان كان للعمة أصدقاء يقيمـون فى (باريس) ، وقـد ربط بينهـا وبينهـم ود وثيـق فـكانت تكاتبهـم ويراسلونها .. وكان من الطبيعى أن تفضفض إليهـم — فى رسائلها — ببعض هواجسها وقلقها ، فاذا بهم يكتبون إليهـا ذات يوم ، مرشحين زوجـا لنيكول من معارفهم .. وكان يدعى « كلود تيكيـه » ، ويشغل منصـبا رفيعا فى القضـاء كمستشار ، وقد أوتى ثـروة طائلة .. فـكان جاهه وثراؤه يطغيان على نقطة الضعف الوحيدة فى صفاته .. وكانت هذه النقطة تتمثل فى انه بلغ الأربعين من عمره !

وتحايلت العمة حتى استطاعت ان تحمل « نيكول » على ان ترضى بالرحيل إلى (باريس) ، ولو لمجرد رؤية « تيكيه » هـذا .. فاذا لم يرق لها ، فلن تقسرهـا عمتهـا على ان ترتضيه زوجا .

وما إن التقت الفتاة بهذا الخطيب حتى بهرها مركزه ، وثراؤه .. ولم تجد أن سنه كانت تعيبه ، إذ كان له من صفر الجسم ، ومن خفة الروح والحركة ، ووسامة الوجه ، ولطف الشمائل ، ما كان يخفى حقيقة سنه ، ويرده فى سلم العمـر درجات إلى الوراء .

علية القوم يترددون على دارها

واقبل « تيكيه » يتقرب إلى « نيكول » — وقد فتن بها — وأسرف فى اغراقها بالهدايا ، فلم تلبث الفتاة ان قبلت الزواج

منه .. ومن المؤكد ان هذا القبول لم يأت عن حب ، وإنمـا كان وليد رغبة فى عدم العودة إلى (ميتز) ، بعد ان شهدت « نيكول » مجتمعات باريس ، وادركت مدى انفساح الفرص لكى يتألق نجمها هناك .. ولعلها طمعت فى أن تستطيع أن تنفذ بجمالها وذكائها إلى أرقى الأوساط ، وأن تستطيع الفوز بما فازت به نساء كن أقل منهـا فى كل شىء ، فى بلاط لويس الرابع عشر !

وأن هى إلا أشهر قـلائل ، حتى تم الزفاف فى اواخـر سنة ١٦٨٠ .. وانتقلت « نيكول » العروس إلى دار زوجها بشارع (ديه سان بير) ، عند التقائه بشارع (دى ونيفرستيه) وقدر لها أن تحقق كثيرا من آمالهـا ، فى السـنوات القلائل الأولى من الزواج ، فتألق نجمها ، وأصبحت قبلة الأنظار ، بفضل جمالها ، وذكائها ، واجادتها فن الحـديث . وصـار « صالونها » ملتقى كثير من علية القوم ، بينهم بعض افـراد الحاشية الملكية ، مثل الأمـيرة « دى كونتى » ، و الـكونتة « دى مورا » ، والمركيز « دى روسيون » ، والسيد «دفيتا» الذى كان من ضباط الأمن ومن ناظمى الأشعار .

بين الاعجاب الصامت والغزل الجرىء

وسرعان ما أحاطت بنيكول هالة من المعجبين ، الـذين كانوا يتسـابقون إلى خطب ودها والتقـرب إليها ، والذين كانوا يشيدون بذكر مفاتنها فىكل مكان ، ويلقبونها بـ « مدام تيكيه الحسناء » . وكان منهم من يكتفى بالمواظبة على حضور مجالسها ، ليملى عينيه بمنظرها ، ويشبع اذنيه من احاديثها

.. ومنهم من كان يلح فى مغازلتها ، ويبذل المحاولات الجريئة .. ولكن احدا منهم لم يظفر منها بمأرب ، ولم يحرك فى قلبها وترا ، ولا اثار فى نفسها عاطفة .. وكانت تصد اشدهم جراة ، بأسلوب يثبط من اندفاعه ، دون أن يفقدها وده وصداقته .

والواقع أن « نيكول » لم تلبث ان راحت تخفى وراء ما كانت تظهر به من سعادة وهناء ، اسى بالغا وخيبة امل .. فقد تبينت انها اخطات ايما خطأ فى قبولها « تيكيه » زوجا . إذ انه ـ وقد أنجبها طفلين ـ لم يلبث أن فتر فى شغفه بها ، واخذ يكشف عن حقيقة طباعه ونفسيته .. فاذا به شحيح ، جشع ، ميال إلى القسوة والاستبداد .. وتجلت الغايات التى افلح فى اخفائها ـ فى بادىء الأمر ـ فتبينت « نيكول » انه كان قد بدد ثروته ، ورزح تحت ديون طمع فى أن يسددها من ثروتها . وقد استهلك ـ بعد الزواج ـ حوالى نصفها فى هذا الغرض ، ثم راح يحاول أن يبدد النصف الآخر على رغباته !

اخيرا التقت بفارس الأحلام

وإذ وضح هذا ، لنيكول ، راحت تعارض زوجها ، وتأبى عليه أموالها ، مما اثار حنقه عليها ، وغضبه .. وسرعان ما دب بينهما الشقاق والنزاع ، واخذت خلافاتهما تشتد وتعنف شيئا فشيئا .

وإذا كانت « نيكول » قد تزوجت من « تيكيه » عن غير حب ، فانها لم تلبث ـ بعد أن اسفر لها عن حقيقته ـ ان

بدات تكرهه ! .. والمراة فى مثل هذه الظروف ، تصبح اكثر استعدادا لأن تنشد الحب ، واشد تعرضا للوقوع فيه . وهذا عين ما حدث لمدام تيكيه الحسناء . فقد تصادف ان التقت ـ فى تلك الاثناء ـ بفارس رشيق ، انيق ، كان من ضباط الحرس الملكى ، هو الكونت « جيلبير دى مونجورج » ، الذى لم يكن يبدو فى العاصمة إلا لماما ، إذ كان منتدبا للاشتراك فى حملة ارسلها لويس الرابع عشر إلى اقليم (الفلاندر) ، حيث ابلى بلاء اكسبه شهرة كبيرة فى مجتمعات ذلك العهد .

على أن اللقاءات القلائل التى جمعت بين الكونت ومدام تيكيه ، كانت كافية لأن تحرك مشاعر هذه ، فاذا بها ترى فى هذا الرجل ـ الذى جمع بين الجاه والمال واللقب النبيل والمنصب الرفيع ـ فارس احلامها الذى طالما تمنت ان تلقاه ! .. ولم يكن هو ـ من ناحيته ـ اقل تاثرا بها ، فقد فتن بسحر جمالها ..

.. واكتشف زوجها السر !

وهكذا وقع كل منهما فى هوى الآخر ، وسرعان ما اخذا يمهدان السبيل إلى لقاءات تروى شجرة هذا الهوى ، وراحا يدبران معا الوسائل للتغلب على العقبات التى كانت تعترضهما .

وكانت اولى العقبات واصعبها ، هى تلك الغيرة التى بدأت تدب فى قلب « تيكيه » مذ ساءت العلاقات بينه وبين « نيكول » . فقد شرع يحصى عليها حركاتها وسكناتها ، وكأنه قرأ فى عينيها ذلك السر الجديد . ومضى يزداد غيرة ، حتى

لقد استأجر حارسا لباب داره ، يدعى « جاك مورا » . وقد
حرص على ان ينتقيه جلفا ، خشن الطباع ، شرس الأخلاق
.. واقامه رقيبا على زوجته ، يحصى مرات خروجها ، ويرصد
من كانوا يزورونها !

وسرعان ما اكتشف الزوج علاقة زوجته بالكونت
مونجورج ، ووضح لديه انهما كانا يلتقيان كلما قدر للفارس
ان يفد على (باريس) ! .. ولم يفت ذلك « نيكول » ، ولا
هى عميت عما كان زوجها يعده لها . فقد كان يرسم خطته
ليستغل هذا الأمر فى سبيل الاستيلاء على ما بقى من
ثروتها .

تستقل بثروتها ، فتثير نقمة زوجها

وبادرت « نيكول » إلى استشارة بعض اصدقائها من
رجال القانون ، ثم طلبت الفصل بين أموالها وأموال زوجها
.. ولم يحرك « تيكيه » ساكنا ، استنادا منه إلى ان مركزه
فى دوائر القضاء ، كان كفيلا بأن يحمل زملاءه على محاباته
ومجاملته . ولكن زوجته لم تلبث أن حصلت على حكم يبيح
لها ان تستقل بثروتها ، فاعتبر هذا الحكم اسوأ صفعة
توجه إليه ، لا سيما وانه قد هزم فى ميدان نفوذه ، فجاش
حب الانتقام فى صدره . واشتد به الحقد على « نيكول » ،
فعقد العزم على ان ينكل بها .

وتجلت خطته الجديدة فى انه ضيق الخناق عليها ،
وضاعف من الرقابة التى كان يفرضها عليها .. وكانا – منذ

اشتد بينهما الشقاق – قد تباعدا إلى درجة انهما اصبحا
يقيمان فى جناحين منفصلين من الدار . ولم يعودا يجتمعان ،
حتى حول المائدة . بل إن « تيكيه » صار يتناول غداءه خارج
الدار ، واعتاد ان يتناول عشاءه فى دار صديق له يقيم على
مقربة من داره ، ويدعى السيد « دى فيلمور » .. وكان
يحرص – قبل أن يبرح الدار – على ان يغلق مدخل جناح
زوجته ، وان يعهد بالمفتاح إلى «مورا» ، الحارس الشرس.
كما اصدر إليه تعليماته بأن لا يفتح باب الدار لاحد إلا بعد
استئذانه هو شخصيا !

السلاح الذى لا يخيب

وادركت « نيكول » انها اصبحت سجينة فعلا ، وان
سجنها منيع ، حصين . وكان من الطبيعى ان يذكى هذا
من حقدها على زوجها .. وكادت تجن لحرمانها من رؤية
حبيبها ،فدب التمرد بين جوانحها ،وعز عليها ان ينتصر الزوج
البغيض ، فأصبحت تتمنى موته .. بل انها راحت تفكر فى
خطة للتعجيل بهذا الموت !

وشعرت بانه لا بد من أن تلتقى بحبيبها لتسأله العون ،
ولتتدبر معه الوسيلة . واشتدت بها الرغبة فى هذا اللقاء ،
حتى انها بدأت تسعى إليه مهما كلفها ذلك من ثمن ! وحاولت
ان ترشو « مورا » ، ولكن الحارس الشرس أبدى تمنعا .
وتحولت الرغبة إلى هوس وخبال ، حتى انها لم تتورع عن أن
تلجأ إلى السلاح الذى لا يخيب .. سلاح الغواية والاغراء !
.. وكيف لخادم وضيع ، جلف ، ان يقاوم أغراء سيدة رفيعة

المكانة ، بارعة الجمال ؟ .. ان الوحش الكامن فى أعماق كل إنسان ، يكون أسرع استجابة للاستفزاز لدى سفلة القوم ، منه لدى عليتهم .. وان لهيب الشهوة لدى ادنى الناس يكون اسرع استعارا منه لدى اعلاهم ، لا سيما إذا كان مصدر النسمات التى تذكيه ، امراة مثل « نيكول » !

تعمل وحدها فى ثلاث جبهات

وصار الباب يفتح ، فى بعض الليالى ، لتتسلل منه نيكول كلما ارادت ان توافى حبيبها .وما إن اتيحت لهاهذه الفرصة، حتى عدلت عن ان تنشد عونه فى خطتها ـ كما كانت تبغى فى بادىء الأمر ـ إذ خشيت ان يستنكر منها رغبتها ، وان تفقد بذلك احترامه وحبه . ومن ثم آثرت ان تعمل وحيدة فى سبيل غايتها .. بل فى سبيل غاياتها فقد بات أمامها ثلاثة اهداف : ان تتخلص من زوجها ، وأن تطامن خوفها من ان يشى حارسها بسرها ، وان تعمل على اغراء مونجورج بالزواج منها إذا ما زال زوجها عن طريقهما .

ولكن ، كيف السبيل إلى غايتها الأولى وحدها ؟ .. كان لا بد لها من شريك تستعين به .. وانتهى بها التهور اليائس، إلى ان يكون «مورا» هو شريكها ، فزادت امعانا فى اغوائه ، ثم صارحته ـ فى شتاء سنة ١٦٩٦ ـ برغبتها فى التخلص من زوجها ، وتحت سلطان الغواية ، راقت الفكرة للحارس، ولعلها اثارت فى نفسه آمالا جساما . واستطاع أن يختار للمهمة شقيا من معارفه يدعى « كاتيلان » ، فعهد إليه بتدبير خطة للانقضاض على السيد « تيكيه » ـ وهو عائد إلى داره فى إحدى الأمسيات ـ والاجهاز عليه .

القدر يأبى أن يموت الزوج

وتأهب « كاتيلان » لأداء المهمة فعلا ، ولكنه تردد ـ فى اللحظة الأخيرة ـ وفوت الفرصة . ثم خشى عاقبة الأمر ، ففر من وجه « مورا » ، ونكث بعهده .

واستاءت « مدام تيكيه » لهذا الاخفاق ، ولكن حقدها كان اقوى واشد من أن يتأثر به ، فلم تيأس ، ولم تعدل عن غايتها .. بل ان الرغبة الجامحة فى القضاء على زوجها اعمت عينيها عن كل حكمة ، فانتهزت فرصة مرض الم به ـ فى إحدى ليالى خريف سنة ١٦٩٧ ـ وارسلت له كوبا من شراب ساخن ، مع احد الخدم . وكانت قد حرصت على ان تدس السم فى الشراب ! .. ولكن الخادم تعثر وهو يلج مخدع سيده ، وعجز عن ان يتمالك توازنه فوقع ، وتحطمت الكوب ، واريق السائل على الأرض !

وكان خليقا بنيكول ـ بعد فشل هذه المؤامرة الثانية ـ ان تخال ان القدر يأبى ان يموت زوجها ، وان ثمة قوة عليا تمد اصبعها فى اللحظة الأخيرة ، لتفسد عليها خطتها ، وتنقذ الزوج البغيض !

ولكن الفشل الجديد لم يثبط عزيمة الزوجة الناقمة ، فعادت تفكر فى خطة جديدة .

« لا ، انك لم تمت بعد ! »

ومرة اخرى ، لجأت إلى « مورا » كى يدبر كمينا لزوجها .. واختار النذل لهذه المهمة رجلين ، كان احدهما

محاربا قديما يدعى « جرانميزون » ، والآخر قريبا له من الشبان . وحدد يوم ٨ ابريل لتنفيذ المؤامرة .

وتربص الرجلان لتيكيه فى جنح الظلام ، فى موعد عودته ـ بعد تناول العشاء ـ من دار السيد « دى فيلمور » ، التى كانت تقوم فى شارع (ديه سان بير) ، غير بعيد من بيت تيكيه .. ولكن المصادفة شاءت ان تكون الليلة مدلهمة الظلمة ، مما حدا بالسيد دى فيلمور إلى أن يصر على ايفاد خادم يحمل مصباحا يضىء به الطريق لصديقه حتى باب داره !

وتردد الشقيان ازاء هذا العامل الذى لم يكن فى الحسبان . ولكن ترددهما لم يطل ، إذ عاودتهما الجراة . فما إن بلغ تيكيه باب داره ، حتى برز من اطواء الظلام شبحان . وانبعث صوت يقول : « ها انتذا اخيرا . لكم طال انتظارى اياك ! .. لقد حانت منيتك ! » . وفى اللحظة ذاتها، دوى طلق نارى ، فاذا الخادم ـ الذى كان بصحبة تيكيه ـ يجمد فى مكانه ، وقد شل الخوف حراكه .. والقى « تيكيه » بنفسه على الأرض ، متظاهرا بأن الرصاصة قد اصابته ، وهتف ليخدع مهاجميه : « آه ، لقد هلكت ! » . ولكن واحدا منهما صاح : « لا ، انكَ لم تمت بعد ! »

وانقض عليه الرجلان بالسيوف ، فصاح بأعلى صوته : « النجدة ! النجدة ! »

يأبى أن يحملوه إلى داره

وكان الطلق النارى قد عكر سكون الليل ، ثم تلته صرخات الاستغاثة ، فأسرع سكان الدور المجاورة إلى فتح نوافذهم .. وهرع بعضهم إلى الطريق ، فأطلق الشقيان سيقانهما للريح ، واختفيا قبل أن يفكر احد فى مطاردتهما .. كل ما عرف عنهما أن احدهما كان فى ثوب رمادى ، والآخر فى ثوب بنى قاتم !

وتجمع القوم حول الجريح .. وكان الخادم قد اسرع ـ فى تلك الاثناء ـ إلى السيد دى فيلمور ، فخف هذا إلى صديقه الحميم .. واقترح المبادرة بنقله إلى داره ، ولكن « تيكيه » هتف بصوت واهن : « لا .. لا تنقلونى إلى دارى ، بل انقلونى إلى دار السيد دى فيلمور ! »

ولم يعارضه احد ، فسرعان ما كان طريح الفراش فى حجرة بدار صديقه . وارسل دى فيلمور فى استدعاء طبيب، فلما اقبل هذا على عجل ، وجد ان « تيكيه » كان مصابا بخمسة جراح ، ولكن ايا منها لم يكن ينذر بخطر يتهدد حياته وان كان بينها جرح نفذ فى صدره ، فكان فى حاجة إلى جهد من الطبيب .

« لا أحد سوى .. زوجتى ! »

وبين عناية الطبيب ، ورعاية الصديق الحميم ، استطاع « تيكيه » ان يجتاز بسلام ليلته الأولى ، وهو فى بحران الحمى .. وعندما اقبل المحقق فى الصباح التالى ،

وجده فى حال مكنته من ان يجيب عن الأسئلة التقليـديـة .. وما لبث المحقق ان ساله ، آخر الأمر : « هـل لك اعـداء ترتاب فى ان واحدا منهم هو مدبر الحادث ؟ » .. ولم يبـد على « تيكيه » اى تردد او تفكير ، بل بادر قائـلا والحقـد يقطر من لهجته : «لست ارتاب فى احد سوى .. زوجتى ! »

وأثار الحادث ـ بما احاط به من ظـروف غامضـة ـ ضـجة بين اهـل باريس ، لا سيما حين لم تبد له اسباب واضحة . وبادر زملاء الجريح فاكـدوا ان العدالة لا بد ان تأخذ مجراها ، وأن القضاة لن تاخذهم شفقة بأى جان اثيم يسفر عنه التحقيق . وتوقع القوم ان تكون القضية طريفة، لا سيما بعد أن تطايرت الاقاويل عما كان بين المستشـار وزوجته من شـقاق ونـزاع .. وبدأ خـدم دار الزوجين يتحدثون عن الحارس « مورا » ، ويتهمونه بأنه مدبر الحادث، فقد كانوا موغرى الصدور ، لما ظفر به « مورا » من سلطان عليهم بفضل تنافس الزوجين فى ارضـائه .. كل من اجـل اغراضه !

شاعر .. يقبض على الحسناء !

وفى ١٢ أبريل ، اصـدر المحـقق أمـرا بالقبض على « مورا » ، إذ أسفر التحقيق الأولى عن عدة شواهد وظروف تحيطه بالشبهات .. ولكنه لم يعترف بشىء .

وتجمعت الادلة على تأييد اتهام « تيكيه » لزوجته ، فلم تلبث ان اعتقلت هى الأخـرى . ومن سـخريات القـدر ان الضابط الذى راس القوة ـ التى القت القبض عليها ـ كان

هو عين الشاعر الشاب الذى اعتاد ان يتردد على «صالونها» .. السيد « دفيتا » ! ومع مابدا به من مظهر صارم ـ حين ذهب إلى دارها لهذه المهمة المحرجة ـ فإنها استقبلته بغير ارتباك ، وفى مهابة وتلطف ، وكأنه قدم فى زيارة ودية . فلما تقدم لاداء مهمته ، نظرت إليه فى ترفع وشـمم ، وقالت له : « سيدى ، لقد اعتدت أن اراك ـ فيما مضى ـ تقف منى موقفا غير هذا . ولقد كنت أصدك إذ ذاك ، أما اليوم .. فانى رهن اشارتك ! »

وفى تجلد ورباطة جاش ، سارت بين الجند ، واستقلت العربة التى اقتيدت إليها !

شاهد غير مرتقب ! .

واخذ التحقيق يسير بسرعة غير مألوفة . وراح «تيكيه» يدبر الخطط ، ويحشد الأدلة للايقاع بزوجته ، بالرغم من أن جراحه لم تكن قد اندملت بعد . واستطاع أن يغـرى بعض الخدم بأن يشهدوا بأنهم سمعوا « مدام تيكيه » تتوعد زوجها، وتتمنى موته .. وورد فى بعض الأقوال ذكر كـوب الشراب الذى اريق على الأرض ، وكان السم قد اذيب فى محتوياته .

على أن السلطات عجزت ـ رغم كل ما بذلت من جهود ـ عن العثور على الرجـل ذى الثـوب البنى ، وزميله ذى الثوب الرمادى ، اللذين هاجما « تيكيه » فى مساء اليوم الثامن من ابريل . اما من الناحية المضادة ، فان « كاتيلان » ـ الذى حاول أن يقوم باعتداء مشابه ، قبل سنوات ثلاث ، واخفق ـ تقدم من تلقاء ذاته ، فذكر للمحقق كيف أن « مورا » تآمـر معه على ارتكاب الحادث القديم ، وزعم انه تظاهر بالقبـول

لفرط حاجته إلى النقود ، ثم تخلى عن المهمة ونكث بوعده .. وكان هذا الاعتراف دليلا أيد الاتهام الذى وجه إلى « مورا » .

نيكول تدافع عن حبيبها

ومونجورج ؟! ماذا كان موقفه ؟ .. الواقع أن اسمه تردد فى الأحاديث التى دارت فى « الصالونات » والمجتمعات ، فعلم من لم يكن قد علم — بالعلاقات التى كانت تربطه بمدام تيكيه الحسناء .. ولكن احدا لم يذهب إلى اتهام الفارس الرشيق المليح .

على أن هذه الاحاديث تناهت إلى اذنى المحقق ، فلما أشار اليها — وهو يواصل مهمته مع مدام تيكيه محاولا استدراجها — صاحت فى استنكار وشمم : « ليس للسيد دى مونجورج اى شأن بهذه القضية ، فهو لا يعلم شيئا عن الأمر ، وليس من الانصاف فى شىء أن تقلقوا راحته لمجرد اقاويل طائشة ! »

وكانت على حق ، إذ أنها كانت قد تكتمت مؤامراتها عن حبيبها حتى لا تفقد احترامه .. وكانت صادقة فى حبها اياه ، فلم تأل جهدا فى ابعاده عن مجرى التحقيق ، حتى لا تمس سمعته شائبة .. وحرصت على تكتم علاقاتها به ، حتى أنها كانت على استعداد لأن تضحى بحياتها دون أن تبوح بكلمة عن سر هواها .

ومضى المحقق يستكمل الأدلة والقرائن دائبا ، حتى اتم عناصر القضية .

الفوز لرجال القانون

وفى أول أيام شهر يونيو ، بدأت المحاكمة .. ولاح للقضاة أن القضية مبهمة غامضة ، لا سيما وقد رفض « مورا » أن يقر بشىء . كما أن « نيكول » أصرت على انكار كل شىء ، فى شمم وترفع زاد جمالها من وقعهما على النفوس .

وفى تلك الاثناء ، كانت ثمة معركة طريفة — ولكنها خطيرة — تجرى فى (باريس) ، وتهدف للتأثير على رأى القضاة .. كان المستشارون ورجال القانون يسعون إلى الثأر لزميلهم « تيكيه » ، بينما كان أصدقاء « نيكول » يعملون على اثارة عواطف أفراد الحاشية والرأى العام ، ليكتسبوا القوتين إلى صف الزوجة الحسناء المتهمة . ولكن الفريق الأول لم يلبث أن كسب المعركة ، فأصدرت محكمة الجنايات حكمها — فى ٣ يونيو — بادانة مدام تيكيه واعدامها بقطع رأسها على مشهد من الملأ ، وبشنق « مورا » ، وبتعويض السيد « تيكيه » — الذى كان قد تماثل للشفاء وانتقل إلى داره — بمائة الف ليرة من ثروة زوجته .. ولكن هذه النتيجة لم تكن كافية لاسعاد الزوج الناقم ، فاذا به يستأنف القضية ، مطالبا بالاستيلاء على ثروة الزوجة بأكملها !

« .. لن أشفى غليلكم » !

وأثيرت القضية من جديد ، فتقرر أن ينظرها القضاة فى ١٧ يونيو .. وإلى أن يحين هذا التاريخ ، رؤى اعادة التحقيق

مع المتهمين ، واستخدم المختصون كل الوسائل فى سبيل انتزاع اعترافات تكفل اقناع القضاة بتأييد الحكم السابق ، وإجابة ملتمس « تيكيه » ، حتى يكون رجال القانون قد ارضوا شهوتهم إلى الانتقام لزميلهم .

وتحت أساليب التعذيب ، أعترف « مورا » فى النهاية .. أما « نيكول » ، فقد تحملت كل ما انزل بها ، دون أن تكف عن القول : « اننى ادرك ما تبتغون ، ولكننى لن اشفى غليلكم ! » . وعنفوا بها أشد العنف ، ابتغاء أن تقر بأن « مونجورج » كان عشيقها وزميلها فى الجريمة ، ولكنها لم تحفل بالآلام ، بل صرخت فى ثورة : « امضوا فى تعذيبى .. اقتلونى ! » . ولم يستطع أحد انتزاع الاعتراف المنشود منها .

وفى ١٧ يونيو عرضت القضية على محكمة الجنايات ، وصح ما كان انصار « نيكول » يخشونه ، فقد أيد القضاة الحكم السابق ، ورفعوا قيمة التعويض إلى مائة وعشرين الف ليرة .

مونجورج يسعى لدى الملك

اترى العدالة قد اتخذت مجراها الطبيعى ؟

من المؤكد ان رجال القانون لم يستندوا إلى القانون فحسب ، فى سبيل الانتقام لزميلهم « تيكيه » .. ومن المؤكد كذلك أن « تيكيه » عمد إلى أساليب غير خالية من الشوائب، فى سبيل جمع الأدلة ضد زوجته .

ولكن .. لم تكن ثمة قرائن ثابتة ، وطيدة ، ضد «نيكول» بالذات ، وأن كان اعتراف « كاتيلان » قد دعم الاتهام الذى كان موجها إلى « مورا » .. وحتى لو أن القرائن توفرت ، فما كانت الجراح الخمس التى أصابت « تيكيه » لتستحق اعدام نفسين ! .. ومن ثم فمن الخطل ان يقال إن العدالة قد اتخذت مجراها .. ومعنى ذلك ان الأمل فى التحايل على العدالة كان متوفرا ؟!

وقد تعلق أنصار « نيكول » بهذا الأمل .. وفى هذه المرحلة ، لمع نجم « مونجورج » الذى كان موقنا من أن « مدام تيكيه الحسناء » هى البراءة ذاتها ، والذى كان جد مشغوف بها . وشعر الفارس المحارب بأنه يخوض معركة اسمى مغانمها هو الفوز بحياة الشابة الفاتنة ، فراح يستغل صلاته ومكانته فى البلاط ، ويوسط ذوى النفوذ والقربى لدى لويس الرابع عشر ، ممن لم يكن الملك ــ الذى أعتاد أن يقول « أنا الدولة ، والدولة أنا ! » ــ يرفض لهم رجاء .

.. ورفض الملك ان يعفو

وتحت الحملة التى دبرها « مونجورج » ، استدعاه الملك يوما ليروى له القصة . وراح الفارس الشاب يقصها فى حرارة ولوعة تأثر لهما قلب الملك ، الذى كان يصغى بانتباه ، والذى لم يلبث ان راى ان الحكم قد انطوى فعلا على قسوة بالغة . فقال فى آخر الأمر : « امهلنى ليلة افكر فى الأمر ! »

وانصرف « مونجورج » وقلبه يرقص فى صدره ، وقد

ايقن من انه كسب المعركة . ولكن .. فى مساء اليوم ذاته ، زار اسقف باريس الملك ، فتحدث إليه فى شأن القضية ، وكان من رايه « ان حياة الأزواج خليقة بأن تصبح مهددة بنزوات الزوجات ، ما لم يوقع على المدانين فى هذه القضية أقسى الوان العقاب » ، و .. « أن الرب لا يغضب على أحد قدر ما يغضب على الزوجة التى تخون العهد الذى قطعته على نفسها امام الله نحو زوجها » !

واقتنع لويس الرابع عشر بمنطق الاسقف . فلما كان الغد ، وطرح الأمر على بعض مستشاريه من رجال القانون — وكانوا جميعا موغرى الصدور ، من أجل زميلهم «تيكيه» — كان الملك على استعداد لأن ينساق لرايهم .. ورفض أن يعفو عن « مدام تيكيه » !

امطار فوق ساحة الاعدام

وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر ١٩ يونيو سنة ١٦٩٩، سيقت « مدام تيكيه الحسناء » إلى حيث تقرر ان يقطع راسها . وخرج اهل باريس عن بكرة أبيهم ليشهدوا تنفيذ الاعدام .. فما كان اعدام زوجة مستشار ، ذاع صيت جمالها فى كل مكان ، بالحدث العادى الذى يقع كل يوم .

وكانت الغيوم تدلهم ، منذرة بامطار شديدة ، ولكن احدا لم يحفل بذلك ، إذ استبد الفضول بالقوم .. وعندما ظهرت العربة التى اقلت مدام تيكيه ومورا — وقد اوثقت ايديهما خلف ظهريهما — انبعثت بين القوم غمغمات كانها هدير الامواج

المقبلة من بعيد .. وكانت مدام تيكيه فى ثوب ابيض ناصع ، تهدلت فوقه خصلات شعرها الكستنائى الناعم . وقد رفعت راسها فى شمم ، وبرز صدرها فى استعلاء . وان بدت مستسلمة لقدرها ، لا تقاوم ولا تتمرد .

ووقفت العربة ، فأمسك القوم انفاسهم ، وقد فعل جمال المراة فعله فى نفوسهم ، فاذا السخط يتلاشى ليحل محله اشفاق بالغ . وفجاة ، تفتحت ميازيب السماء ، تصب وابلا من مطر غزير .

تمثال اسود يقف وحيدا

ويحاول القوم ان يصمدوا للمطر ، ولكن ما إن اغرقت قطراته الثقيلة ثيابهم ، حتى أسرعوا يلوذون بمداخل الدور ، ويحتمون بالجدران ، فخلا الميدان الذى كان يضيق بهم .

شخص واحد لم يحرك ساكنا .. ذلك هو « نيكول » ، التى وقفت فى العربة جامدة ، كانها تمثال من صوان .. تمثال ابيض ، بارع الجمال . فلم تجفل من المطر ، ولا هى احنت راسها تحت وابله ، بل ظلت واقفة منتصبة العود ، رافعة الراس . وما لبث حوذى عربة الاعدام أن اشفق عليها، فالقى على راسها عباءة سوداء ، انسدلت على بقية جسمها .. ولم تتحرك ! وتحول التمثال الأبيض إلى نصب اسود ، اشبه ما يكون برمز للحداد والأسى !

ولم يلبث المطر ان انقطع فجاة ، كما بدأ .. وتقدم الجلاد فنضا العباءة السوداء عن « نيكول » .. وعاد جمالها يومض من تحت السواد ، فخفقت قلوب القوم لوعة واشفاقا !

ارتجفت يد الجلاد

واقتيدت نحو منصة الاعدام ، فتقدمت منصاعة ، مستسلمة ، تسير فى خطى وئيدة ، حزينة ، ولكنها لم تفقد شممها وجلالها .. وكانما اراد الجلاد ان يستحثها ، فدفعها بيده ، وإذا بها تنحنى فجاة ، فتقبل اليد الخشنة . وكانت هذه الحركة غير المرتقبة كفيلة بأن تذيب ما تبقى من قلوب جامدة .. فارتفعت من وسط الجمع شهقات ونهنهات . واتجهت الأفئدة إلى السماء بدعاء صامت مكتوم ، وقد راود الجميع امل عجيب .. امل فى ان يقبل — فى اللحظة الأخيرة — فارس يحمل امرا ملكيا بالعفو عن الحسناء . ولعل الجلاد — هو الآخر — قد راوده هذا الأمل ، إذ راح يتلكا !

ولكن للتلكؤ نهاية ، فلم تلبث نيكول ان ركعت إلى جوار النطع ، واسندت راسها إليه . وتقدم احد مساعدى الجلاد ليزيح شعرها عن عنقها ، فنحت يده بلطف ، ورفعت شعرها بيديها وعقصته عاليا ، فبدا عنقها البض الجميل ..

ولم يصل الفارس المرتجى . ولم يعد امام الجلاد سوى ان يؤدى مهمته .. ولعل التاثر الذى غشيه قد ارسل رجفة فى يده ، حتى انه اضطر إلى ان يهوى ببلطته ثلاث مرات ، قبل ان يوفق إلى فصل الراس عن الجسد !

الحبيب المحزون ..

وفى (فرساى) ، كان الكونت دى مونجورج مشتت البال ، كسير الفؤاد ، اشبه بجسد متداع فارقته روحه .

وعافت نفسه رؤية الناس ، فلاذ بركن بعيد ، منعزل ، من الحدائق الشاسعة المحيطة بالقصر ، حيث جلس على مقعد حجرى .. واسلم راسه إلى راحتيه ، وراح يبكى فى لوعة واسى ، وهو يتمثل الجمال الفتان الذى استولى على فؤاده ، ويستعرض مرات اللقاء التى جمعت بينه وبين « نيكول » الحسناء ، ويتحسس المواضع التى مستها شفتاها من وجهه!

ولم يفطن مونجورج إلى الأمطار حين انهمرت .. ولا إلى الغيوم حين تبددت . .ولا إلى الشمس حين عادت إلى اشراقها . كان غائبا بكل حواسه عن الدنيا . ولكنه افاق اخيرا على جلبة تقترب منه ، فرفع راسه ، وإذا الملك يقترب منه ، يحف به نفر من علية القوم . وعندما وصل إليه الملك ، خيل إلى العاشق المكلوم انه فى حلم ، فلم يحرك ساكنا .. وواتاه صوت الملك وكأنه ينبعث من بعد سحيق ، وهو يقول فى تلطف وعطف : « اننى اقدر حزنك والملك ايها السيد ، ولست أملك لك شيئا سوى ان أؤكد لك حبى وعطفى ! » .. واشاح مونجورج فى صمت ، وهو يابى ان يصدق الواقع .. وما كان ليجديه ان يصدقه ، فان محبة الملك وعطفه لم يكونا ليردا إليه الحبيبة التى فقدها !

.. واسدلت الستار !

وعاش « مونجورج » فترة فى عزلة عن الناس ، ثم عاد يغرق أساه فى ميدان الجهاد ، فخاض بعض المعارك وبرز فيها ، حتى ظفر فى سنة ١٧١٠ بصليب القديس لويس .

وعندما بلغ الخمسين ، خشى أن يموت بلا وريث ، فتزوج من ارملة حسناء . ولا يدرى أحد هل سعد بهذا الزواج أم شقى ؟ .. وهل انسته زوجته تلك الحبيبة الفاتنة التى زينت لها الرغبة فى ان تكون له ، أن تجنح إلى الجريمة والشر ؟

• فى سنة ١٧٣٥ ، مات الكونت دى مونجورج (*)

اما « تيكيه » ، فقد عاش حتى سن الثمانين .. لم تزده الأعوام إلا جشعا ، وخسة ، وتكالبا على جمع المال !

عزيزى القارىء :

ما اشبه المراة الجاحدة ، ذات النفس الشريرة ، بالحية الرقطاء . شكلها مزخرف جميل ، وملمسها ناعم ، ولكن سمها فتاك !

وبطلة هذه القصة لم تكن فذة الجمال ، ولكنهـا كانت صارخة الفتنة ، عارمة الإغـراء .. ولم يكن أحد يدرى من اين جاءت ، ولا كيف نشأت ، برغم انهـا كانت نجما متالقا فى سماء البلاط الانجليزى .. كل الذى عرف عنهـا ، هو ان النحس كان يصيب كل من تصطفيه لنفسـها من العشاق ، فلا يلبث ان يموت !

ولم يجرؤ أحد على أن يرتاب فيها ، ولا أن يوجه إليها اتهاما ..

ولكن، لندع « روجيه ريجى » يروى لك القصة بطريقته ، فى هذه الحلقة من حلقات « نساء ومآس فى ساحة العدالة » ، التى جمعها الكاتب من سجلات المحاكم فى مختلف العصور ..

غريب فى عاصمة الإنجليز

استغرق « سـانت أندريه » فى تأمل سـحر الطبيعـة وفتنتهـا ، وقد جلس فى مقدمة الزورق متراخيـا فى كسـل مستعذب .. كان الربيع يبتسم فى سماء (لندن) ، العاصمة الإنجليزية الدائمة العبـوس والتجهم .. وعـلى صـفحة

(التيمز) ، انطلقت الزوارق خفافا بطلاب النزهة وعشـاق الطبيعة . وما كان الشاب الفرنسى « سانت اندريه » قـد ذهب إلى لندن ليكون من هؤلاء او اولئك ، ولكنه زارها لأمر اهم ، وقد فرغ مبكرا ــ فى ذلك اليوم ــ من المطالب اليومية التى كانت تقتضـيها مهمته هناك ، وأوشك أن يغزوه ذلك الشعور الموحش الذى يستبد بالغريب إذا ما خلا إلى نفسه دون انيس ، وراوده الملل ..

وكان « سانت اندريه » قد وصل إلى لندن قبل خمسـة عشر يوما ــ خلال شهر مايو من سنة ١٦٦٧ ــ ولما تبرح اذهان الانجليز بعد ، ذكرى الحريق المروع الذى كان قـد انطلق معربدا فى عاصمتهم ، فى العام السابق ..

وكان الشاب فى حوالى العشرين من عمره ، مليحـا ، ممشوق القوام ، انيقا ، أوتى خصال علية القوم وان لم يكن ينتمى إلى طبقتهم . إذ أنـه لم يكن سـوى ابن اخ لتـاجر باريسى ، وقد جاء موفدا من لدن عمه لعقد صـفقة كبيرة .

يفتقد اللهو فى لندن الحزينة

ومع أن الفرنسى الشـاب كان اهلا للمهمة التى وكلت إليه ، الا أنه ــ ككل شاب ــ كان تواقا إلى شىء من اللهو والمرح . ولكن العاصمة الانجليزية كانت بعيدة كل البعد عن المرح واللهو .. فهى لم تكد تتخلص من وباء الطاعون الذى استشرى فيهـا ــ فى سنة ١٦٦٥ ــ حتى فوجئت بالحريق فى سـنة ١٦٦٦ .. ولم تكـد تفيق من النكبة ، حتى نشب

القتال بين الأسطول الانجليزى والأسطول الهولندى .. ومن
الصحيح أن الحاشية الملكية كانت مغرقة فى مجونها ، إلا أن
الشاب الفرنسى لم يكن يملك أن يشاركها سهراتها .. ومن
الصحيح — كذلك — أن الطبقة الوسطى كانت تحاول الفرار
من الواقع البغيض ، بالانغماس فى الوان من اللهو .. بيد أن
هذه كانت جميعا الوانا مصطنعة متكلفة ، لم ترق للشاب
فعافتها نفسه .

ولم يبق من سبيل إلى الترفيه عن نفسه سوى أن ينطلق
فى زورقه هذا ، على صفحة النهر ، يستجلى مفاتن الطبيعة
ونفسه تهفو فى حنين إلى مغامرة تجلو عنها صدأ السأم ..
إلى فتاة لا تكون سهلة المنال ، بل تكبده شيئا من الجرى
والتفكير والانفعالات ، قبل أن يظفر بها !

واخرجه من تأملاته الشاردة ، حفيف زورق غير بعيد ،
وصوت مجدافيه وهما تلتقيان بصفحة الماء فى تتابع رتيب ،
فالتفت فى زهد ، والقى على الزورق نظرة ..

حسناء .. على صفحة النهر

وفجأة ، نشطت كل حواسه لتتركز على الزورق ،
الذى كان يسير فى أتجاه يتعارض مع اتجاه زورقه . فقد كانت
فى ذلك الزورق امراة وحيدة ، لا رجل معها .. امراة فى ثياب
فخمة ، كشفت عن صدر مرمرى استقرت فوقه ماسة كبيرة
مدلاة من قلادة انيقة . ولعل قسمات وجهها لم تكن بارعة
الجمال ، ولا كانت من الرقة والاتساق بالشكل الذى يصوره

الفنانون فى لوحاتهم إذا ما ارادوا أن يمثلوا الحسن .. بيد
أن شعرها الذهبى الذى تطايرت خصلاته مع النسيم ،
وعينيها السوداوين الواسعتين ، وقوامها اللدن الذى
اضطجع فى الزورق فى تراخ غير متكلف .. كل هذه كانت تشع
بفتنة وغواية كفيلتين بأن تهفو بعقل أصلب الرجال قلبا .

ولذلك فان « سانت اندريه » لم يقو على المقاومة ، فطلب
إلى نوتى زورقه أن يتبع تلك الغانية الوحيدة .. وحاول —
فى اثناء ذلك — أن يسأله عنها ، فإذا بها ليست نكرة فى
(لندن) .. كانت تدعى « موللى سيبليس » ، وكانت نجما
لامعا فى الأوساط الراقية ، وقد اشتهرت بأنها تفتن الرجال ،
ولكنها لا تسلم احدا زمامها .. بل إن الرجال كانوا يشتهونها
ويخشونها فى آن واحد !

ولم يكن النوتى يملك لهذا تعليلا ، مما اضفى على الغانية
غلالة من الغموض ، جعلت الفرنسى الشاب يرى فى الجرى
وراءها مغامرة من النوع الذى كان يصبو إليه !

تعارف ينتهى بدعوة

ولاح بعد قليل أن « موللى سيبليس » قد فطنت إلى متابعة
الفرنسى لها — على صفحة النهر — فراحت تقوده حيث كان
يحلو لها .. وهكذا لم تلبث أن انتهت به إلى الضفة المقابلة
لبرج لندن . واستحث «سانت اندريه» نوتى زورقه ، فمس
الزورقان البر معا ، فى لحظة واحدة . وإذ ذاك قفز
الشاب إلى الأرض ، وأسرع إلى حافة زورق المراة ، فمد
إليها يده عارضا أن يعاونها على الهبوط ، فلم ترد يده .

وقال فى لباقة : « اغفرى لى جراتى يا سيدتى ، ولكن منظرك ملك على لبى ، فانسانى كل عرف ، واعجزنى عن ان اقاوم الرغبة فى ان املى عينى منك عن كثب ! » .

واجابت الغانية فى تلطف مشوب باستعلاء وجلال : « لا بأس ، وانى لأغفر لك ، فان لهجتك تنم عن انك فرنسى ، وقد عرف الفرنسيون باللباقة والظرف . وانك لضيف على بلادنا ، وللضيف إكرامه . فاذا شئت ان نوثق التعارف ،فانى ليسرنى ان تتفضل فتصحبنى إلى دارى ، وأن تتناول العشاء معى ! » .

وخفق فؤاد الشاب ، ولكنه لم يتردد فى قبول دعوتها ..

وقادته « موللى سيبليس » إلى منزل يطل على النهر ، غير بعيد من البقعة التى هبطا فيها ، وقد أوتى من جمال المنظر ما جعله يتيه على كافة المنازل المحيطة به .. على أن « سانت أندريه » لم يتمالك ان يحس بأن البيت كان ــ برغم جماله ــ اشبه بالسجن ، إذ كانت ابوابه الخارجية من حديد ثقيل ، وقد سد فراغ نوافذه بقضبان حديدية .. وخفق قلب الشاب ــ فى هذه المرة ــ بشعور غامض ، وقد خيل إليه انه مقبل على مغامرة مبهمة .

إذا انبثق الفجر .. رحل العاشق !

واستقبلتهما سيدة عجوز ، وفتاة فى ريعان الصبا ، بدا من الاحترام الذى ابدياه للشابة انهما كانتا فى خدمتها .. واستطاع « سانت أندريه » أن يعرف ان اولاهما كانت تدعى

« مسز توكر » ، وان الثانية كانت ابنتها ، وتنادى باسم « كيت » .

وجلس « سانت أندريه » مع « موللى » فى حجرة جلوس صغيرة ، بدا من اثاثها أنه قد اختير بعناية وذوق بديع ، ليحتفى فيها بالصفوة المقربة إلى سيدة الدار .. وراحا يتحدثان وهما يتناولان بعض المشروبات الخفيفة ، المنعشة ، ريثما تعد المائدة .

ولم تدع المضيفة ضيفها ينصرف بعد العشاء ، بل راحا يسمران ويشربان .. وما لبث السمر ، والشراب ، وهدوء الليل ، والخلوة ، والشباب ، ان تفاعلت بعضها مع بعض ..

وعندما انساب اول خيط من ضياء الفجر ، ايقظت موللى ضيفها ، واهابت به : « يجب ان تنصرف الآن .. اسرع ! »

ولم يملك « سانت أندريه » سوى ان يطيع رغبة فاتنته ، فبادر إلى الانصراف . وما إن بلغ باب الدار ، حتى الفى « مسز توكر » تقف فى كامل ثيابها ، ترتقب هبوطه لتشيعه إلى الخارج .

وعجب الشاب للأمر . وزاده عجبا ان تذكر النظرات التى راحت العجوز ترمقه بها فى الليلة السالفة .. كانت نظراتها مشوبة بعطف غريب ، لم ير له داعيا .. برثاء واشفاق دهش لهما ، ثم لم يلبث ان كذب حدسه ، وعلل نفسه بانه اخطأ التفسير . ولكنه ــ وهو منصرف فى الفجر ــ لمح على

محياها امارات رثاء حزين ، لم يستطع ان يتعامى عنه فى هذه المرة !

بين الهوى والهواجس

والفى نفسه يتجه اليهـا ، ثم يسالها : « هلا تفضلت فانبأتنى : من تكون موللى سيليس فى الواقع ؟ .. اهى متزوجة ؟ » .. ولكن العجوز هزت راسها فى صمت ، دون أن تجيب . وخطر له ان يدس فى يدها جنيها ، عسى أن يفك عقدة لسانها ، ولكنها ردت الجنيه قائلة فى همس : « لست أملك ان اقول لك شيئا . ولكنى أرجو ان تاخذ بنصحى ايها الأجنبى .. إننى أستحلفك بحق السماء أن لا تعود ثانية إلى هذا البيت اطلاقا ! » .

وأثار النصح دهشة « سانت اندريه » وقلقه ، بيد أنه لم يكد يبرح الدار ، حتى نسى ذلك فى غمرة ذكريات الليلة السالفة .. ذكريات المتعة التى كان عبيرها لا يزال عالقا بشفتيه . فلأول مرة فى حياته ، وجد نفسه محبوبا لوجه الحب .. وكانت التى احبته حسناء هى اكثر من عرفهن من بنات حواء اغراء وفتنة !

واندفع فى هذا الهوى بكل نفسه وعواطفه .. ولم يكن يعكر عليه هناءته سوى انه كان عند انصرافه – فى فجر كل يوم – يجد « مسز توكر » فى انتظاره لتشييعه ، وفى عينيها ذلك الرثاء الحزين .. الرثاء الذى حاول ان يعرف كنهه وسره ، لولا ان العجوز ظلت على صمتها ..

وكان يذكر – فى كل مرة – ذلك النصح الذى ازجته إليه العجوز اثر الليلة الأولى . وشيئا فشيئا ، اخذ هذا النصح يثير قلقه وتوجسه ، حتى انتهى به الأمر إلى أن عقد عزمه – فى اصرار – على ان يعرف حقيقة الأمر ، مهما يكلفه ذلك .

يشترى السر بغرام جديد !

وفى ذات يوم ، تعمد أن يذهب إلى منزل « موللى » مبكرا عن موعده المعتاد .. ووجد الأبواب الحديدية مغلقة .

وكانت « كيت » هى التى فتحت له الأبواب ، فقد كانت أمها متغيبة ، و «موللى» خارج الدار هى الأخرى . وما كان « سانت أندريه » ليبغى – فى الواقع – ظروفا خيرا من هذه ..

ورأى ان الفتاة لن تكون اقل من امها اصرارا على الصمت ، ففكر فى خطة اخرى يستدرجها بها إلى الحديث . وما كانت هذه الخطة لتتطلب شيئا من التضحية أو الاكراه . فقد كانت « كيت » فى بهاء الصبا ، ذات قسمات بديعة ، وشفتين اشهى من ثمار الكرز .

لذلك بادر قائلا : « لقد تعمدت أن آتى مبكرا ، على امل ان لا اجد مس سيليس يا كيت ، وقد حقق الحظ رغبتى ! » .. وتطلعت اليه الفتاة فى شىء من الدهشة ، ولكنه استطرد قائلا : « الواقع اننى جئت من اجلك انت ! » .

وراح يغرق الفتاة بفيض من الغزل المشبوب ، والعواطف الحارة ، فسرعان ما لان قلبها وهى الساذجة الصغيرة ..

وفى غرفتها الخاصة ــ بالطابق الثانى من المنزل ــ اخذ الشاب يستدرج « كيت » ، حتى افضت له بما عرفت من امها ، التى كانت تعيش على مقربة من « موللى » منذ حداثتها .

الموت نصيب كل عشيق !

ولدت « موللى سيبليس » لاسرة فقيرة ، عديدة الافراد ، فى (ايرلندا) . ومن ثم فقد فرحت الأسرة يوم استطاعت ان تلحق الفتاة ــ وهى فى الخامسة عشرة من عمرها ــ بالخدمة فى قصر احد سادة المنطقة .

وسرعان ما قدر للخادم الصغيرة ان تغدو خليلة لوصيف سيد القصر .. وبسم الحظ لها ــ مرة اخرى ــ فرآها السيد ، ولم يلبث أن استأثر بها دون وصيفه !

وكان السيد رجلا مسنا ، اعزب ، واسع الثراء . وقد احب الفتاة فى شغف الشيخ الذى يحاول التشبث باذيال الشباب ، واخذ يغدق عليها عنايته واهتمامه ، حتى حولها من خادم وضيعة الأصل ، امية جاهلة ، إلى سيدة متعلمة راقية ، تجيد الغناء والموسيقى ، وتحذق اساليب الفتنة والدلال ، وتتقن اصول الظهور فى المجتمعات .. على انها لم تبد مهارة فى شىء قدر مهارتها فى لعب الورق .. وكان الحظ يلازمها على طول الخط !

ولعل السيد كان على استعداد لأن يتزوج منها ، لولا ان

الأجل لم يمهله .. لم يمهله ولو ريثما يتخذ من التدابير ما يكفل لها حياة طيبة !

وحرص الوصيف ــ بعد ذلك ــ على أن يفرض سلطانه عليها من جديد ، وأن يستغل فتنتها ومهارتها فى لعب الورق .. ولكنه لم ينعم بذلك طويلا ، إذ وافاه أجله بغتة ، فلحق بسيده !

وعثر احد ثراة الإنجليز على «موللى» فتعلق بها ، وحملها معه إلى لندن ، حيث قدمها إلى ارقى المجتمعات ، واستطاع ان يدفع بها إلى أوساط الحاشية .. حاشية الملك تشارلس الثانى الذى كان مغرقا فى حب « الليدى كاسلمين » ، فكانت غرامياته قدوة لأتباعه . ولم يلبث عشيق «موللى» الإنجليزى ان قضى نحبه بغتة ، بعد ليلة قضاها فى احضانها .. وتركها بعد ان وطد مكانتها بين الطبقة الراقية .

وتوالت مغامرات الفتاة .. مغامرات قصيرة الأجل ، عابرة . ثم تعلق بها ضابط عاش معها فترة من الزمن ولم يلبث ان اختفى فى ظروف غامضة .. وحظيت « موللى » بعده بعشيق آخر ، ولكنه كان أسعد حظا من سابقيه ، إذ انه سرعان ما قطع علاقاته بها ليتزوج . ولكن عروسه لم تلبث ان أصيبت بمرض حار الأطباء فى كنهه .. ثم ماتت .

للمرة الثانية : أهرب من وجهها !

وإلى هنا لم يرتب احد فى امر الفاتنة .. كل ما كان القوم يأخذونه عليها هو أنها كانت مصدر نحس على عشاقها ، وانها كانت بارعة فى المقامرة ، لا يخذلها الحظ ابدا .

وهتفت « كيت » فى ضراعة ، بعد ان روت للشاب الفرنسى كل هذا : « أرأيت ؟! .. إن هذه المرأة شؤم على كل من يعشقها ، فهلا أشفقت على شبابك ، وفررت من وجهها ؟ ! » .. عين النصيحة التى سمعها « سانت أندريه » من « مسز توكر » . ولكنه اقتنع — فى هذه المرة — بأن الغموض الذى كان يحيط بموللى سيليس اعمق مما تصور ، وأن الامعان فى مغامرته معها ، من شأنه أن يعرضه لأخطار قد تودى بحياته هو الآخر . ومن ثم فقد عول على أن يبتعد عن طريقها .. أن يبتعد تماما ! .. أن يعود إلى فرنسا ، بعد إذ لم يبق ما يستدعى إطالة المكث فى إنجلترا .

وودع « كيت » ارق وداع ، ثم هبط سلم الدار وهو معتزم أن تكون تلك آخر مرة .. على أنه لم يكد يبلغ البهو ، حتى وجد نفسه أمام « موللى » وجها لوجه .. وكانت مفاجأة غير مرتقبة !

وسألته الغانية فى صوت أجش ، ينضح بالشك : ما الذى كنت تفعله فى الطابق الأعلى ؟ » .. وارتبك الشاب ، بيد أنه سرعان ما تمالك نفسه ، وقال متلعثما : « لقد وصلت مبكرا ، فلم اجدك .. وثقل الانتظار على نفسى ، فصعدت إلى الطابق الأعلى ، لأسرح البصر خلال نوافذه إلى النهر ، واستجلى مناظر الطبيعة ! » .

سحر الموسيقى .. وخمر الشفاه

ولم تبد الغانية اية دهشة ، لا ولم تكذبه .. حتى عندما لمحت ذيل ثوب «كيت» وهى تقف متوارية — فى اعلى السلم —

اثر وداعها اياه . بل انها ابتسمت فى وجه الشاب ، وقالت فى لطف : « لكم أنا مغتبطة بقدومك مبكرا ، فتعال اسمعك شيئا من الموسيقى ، ريثما تعد المائدة ! » .

وكانت بارعة فى عزفها ، حتى لقد انسابت الألحان فى اذنى « سانت أندريه » أشبه بسحر مسكوب ، فراح يسبح فى طوفانه هائما ، منتشيا .. وما لبث العشاء ان اعد ، فانتقل مع الغانية إلى المائدة ، ووقفت « مسز توكر » و « كيت » فى خدمتهما .

وراحت « موللى » تبدى من صنوف الحفاوة والتلطف ، ما لم يعهده الشاب منها فى الليالى السالفة . وكانت مرحة أيما مرح ، مسرفة فى الدلال إلى درجة تهفو بالعقل ..

أما « سانت أندريه » ، فقد خامره شعور بالقلق لم يدر مأتاه ، فبدا مشتت البال فى بداية السهرة ، ولكن شفتى « موللى » لم تلبثا ان اذاقتاه من رحيقهما خمرا ، فثمل واستسلم !

نبيذ ذهبى عجيب

وإذ خلا إليها وخلت إليه — بعد العشاء ، وبعد ان صرفت الخادمين — عاود « سانت أندريه » شىء من توجسه ، فرمقته الغانية بنظرة ثاقبة ، كأنما ارادت بها ان تنفذ إلى اعماق نفسه ، ثم قالت : « الحق يا حبيبى ، انك لست الليلة ذلك العاشق اللطيف ، اللبق ، الذى عهدته .. ما الذى يشغلك عنى ؟ .. إن لدى — لحسن الحظ — ما يرد إليك مرحك وطلاقة لسانك ، وبراعتك فى الحب والغزل ! » .

ونهضت إلى خزانة فتحتها بمفتاح كانت تحتفظ به ، واخرجت منها قنينة بدا فيها سائل ذهبى براق . فملأت للشاب كأسا منها ، وهى تقول : « هذا نبيذ من الجزر النائية .. تذوقه تجد له مفعولا عجيبا ! » .

وكان النبيذ عجيبا حقا ، فقد أرسل الدماء فى عروق « سانت أندريه » حارة حامية ، وبدد من ذهنه كل الهواجس ، وحمله على اجنحة المرح والهوى ..

ولم تكد اولى خيوط الفجر التالى تلوح ، حتى دوت فى البيت صرخات جزعة .. وخفت الخادم العجوز وابنتها إلى مخدع مولاتهما ، فاذا الشاب الفرنسى مسجى فى الفراش بلا حراك ، وقد فارقته الحياة !

اخيرا .. استيقظ ضميرها !

كان من الواضح ان المكانة التى اكتسبتها « موللى سيليس » فى بلاط سادة الانحلال والفساد ، هى السر فى أن العدالة اغمضت عينيها عن الأحداث الغامضة التى كانت تحدث فى مخدع تلك الغانية الرهيبة .. فما كان النحس الذى لازم عددا من عشاق « موللى » ليقبل على علاته ، لولا ذلك .

ولكن العاشق المنحوس ــ فى هذه المرة ــ كان من رعايا لويس الرابع عشر . فما إن علم السفير الفرنسى بوفاة « سانت أندريه » حتى ساورته الشكوك ، وراح يلح على « تشارلس الثانى » بوجوب التحقيق فى الأمر .

واجرى التحقيق فعلا .. وكانت « مسز توكر » وابنتها أول من وجه اليهم المحقق اهتمامه ، ولكنهما لاذتا بالصمت إزاء ماضى مخدومتهما ، واعربتا عن جهلهما بما كان يدور فى مخدعها . بيد ان اصرارهما لم يلبث ان تداعى ، فافضتا بكل ما كانتا تعرفان .

والقى القبض على « موللى » ، فلم تبد اكتراثا ، واستسلمت للسجن صامتة . ولكنها لم تمكث على هذا الصمت طويلا ، إذ طرأ عليها تغير غريب ، بدد استهتارها وعدم اكتراثها . ولعل ضميرها قد استيقظ اخيرا ، فعرضت ان تعترف بكل شىء .. واستمع إليها المحقق مذهولا !

تنتقم لعزة أنوثتها !

لقد كان بوسع « موللى » ان تعيش مع سيد القصر الايرلندى فى هناء إلى ان يوافيه اجله الطبيعى .. وكان من المحتمل ان يتزوجها ذلك الكهل المفتون ــ فى تلك الاثناء ــ أو ان يوصى لها بشىء من ثروته ــ على الأقل ــ عندما يموت ، لولا أمر واحد .. ذلك هو أن الحب كان من طرف واحد .. فهى لم تحب السيد الكهل يوما !

ولقد أثارها أن تجد نفسها مضطرة إلى ان تكون مطية له ، فى سبيل ان تحظى بحياة رغدة . وكانت ككل فتاة فى تلك السن المبكرة ــ سن الخامسة عشرة ــ تصبو إلى شخص يحبها من اجل الحب ذاته ، وتحبه فتهبه اعز مفاتنها عن طيب خاطر ، وتكرس حياتها لاسعاده وارضائه .. اما

علاقتها بالسيد الشيخ ، فكانت تبديها فى عينى نفسها اشبه بفرس فى حظائره ، يمتطيها عندما يحلو له ذلك ، دون أن تملك من أمر نفسها شيئا .. بل إن الفرس قد تملك ان تجمح وتلقى براكبها !

وخطر لمولى ان تجمح هى الأخرى — انتقاما لكرامة انوثتها — فدست السم فى شراب السيد .. وعندما اراد وصيفه ان يستغلها لأغراضه الجشعة ، الحقته به !.. وهكذا تفتحت امامها ابواب الجريمة ، واستسهلت طريقها ، فقضت على عدد من العشاق الذين تبينت انهم لم يتصلوا بها بدافع من الحب الصحيح الصادق ، وإنما كانوا يعتمدون على ثرواتهم ومراكزهم لارواء ظما شهواتهم إلى مفاتن جسمها .

ولكن أمر الشاب الفرنسى كان يختلف ..

لقد تقدم اليها وهو لا يعرف عنها شيئا ، إذ فتنته جاذبيتها .. ولقد راقها منه جماله الغض ، فكان اول رجل احبته . وكان من المحتمل ان تخلص له لــولا .. « لولا أن تبينت انه انشا صلة سرية مع خادمتى ، فثارت نفسى ، ولم اتمالك أن انتقم لعواطفى المهدرة ، ولحبى المغدور ! .. على انى رايت ان ارتوى منه للمرة الأخيرة قبل ان اورده حتفه .. فأسكرته ، وحملته على ان يقضى ليلته فى احضانى . وفى الفجر ، كانت الخمر والجهد قد نالا منه كل منال ، فنام اعياء .. وإذ ذاك كتمت انفاسه حتى مات ، دون ان يقوى على المقاومة ! » .

حاشية اضافها القدر إلى القصة !

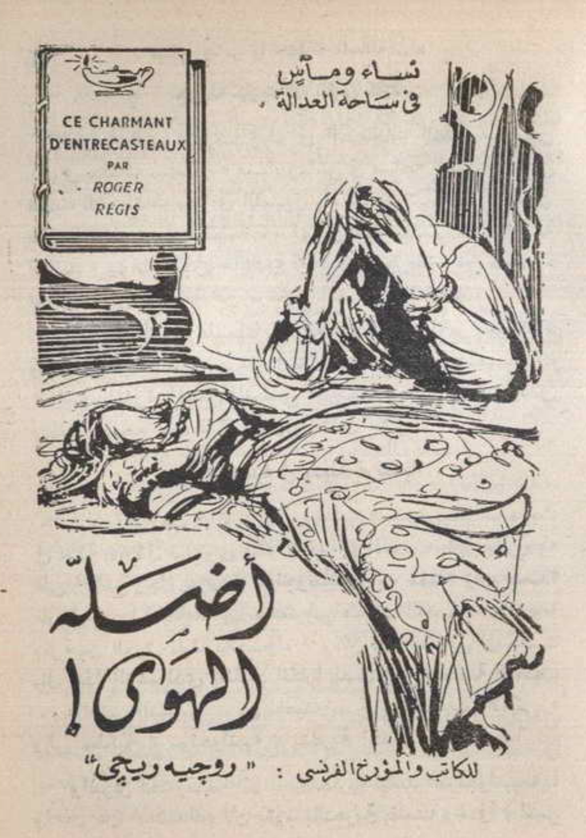
إزاء هذه الاعترافات الخطيرة ، لم تجد المحكمة مفرا من أن تقضى بالاعدام على الغانية التى كان الموت يسكن أحضانها !

على أن « تشارلس الثانى » كان يحب الجمال والجراة ، فلم يطاوعه قلبه على أن يوقع قرار الإعدام .. ولعله وجد من افراد الحاشية من راح يضرع إليه ، ويشفع من اجل الغانية ، فاذا به يبدل حكم الاعدام بالنفى إلى امريكا .. التى كانت إذ ذاك تابعة للتاج ، ومنفى للمجرمين الذين يراد تخليص المجتمع الانجليزى منهم .

وكان من الممكن ان تنتهى القصة عند هذا الحد ، لولا حاشية قصيرة أراد القدر ان يضيفها . ففى ظلام احدى الليالى ، تعرضت سفينة مسلحة للسفينة التى كانت تقل « مولى » عبر المحيط .. وقفزت منها ثلة من الرجال المدججين بالسلاح ، الذين توارت وجوههم خلف اقنعة ، فمنعوا البحارة من كل مقاومة ، ريثما نقلوا « مولى سيبليس » إلى سفينتهم . وانطلقوا بها !

إلى اين ؟ .. ولماذا ؟ .. وماذا بعد ذلك ؟

هذا ما لم يعرفه احد إلى اليوم ! .. إنه السر الذى طواه الغيب بين جوانحه ، فظل مكانه شاغرا فى صفحات تاريخ الحب والجريمة .


نساء ومآسٍ
في ساحة العدالة
CE CHARMANT
D'ENTRECASTEAUX
PAR
ROGER
RÉGIS
أضلّه
الهوى!
للكاتب والمؤرخ الفرنسي : " روجيه ريجي "

جريمة كادت ان تكون كاملة

الجريمة التى اسوقها إليك فى الصفحات التالية ــ وهى احدى حلقات سلسلة « نساء ومآس فى ساحة العدالة » التى قدمت لك حلقات منها فى الفصول السابقة ـ كادت ان تكون جريمة كاملة بمعنى الكلمة .. اى ان دقة التدبير ، وبراعة التنفيذ ، ودهاء المجرم ، كادت ان تحكم ستر الغموض حولها ، فتعمى عينى العدالة عن مرتكبها الآثم ، لولا ..

ولكنى لن افسد عليك متعة اكتشاف الأمر بنفسك ، ولذلك اخلى بينك وبين قراءة تفصيلاتها التى جمعها لك الكاتب والمؤرخ المحقق الفرنسى « روجيه ريجى » ، من وثائق وملفات يرجع عهدها إلى القرن الثامن عشر .

حدث غريب فى مدينة فرنسية

لم يكن لأهل (اكس ان بروفانس) ــ بفرنسا ــ حديث فى سنة ١٧٨٤ ، سوى ذلك الاختراع العجيب الذى خرج به على الناس رجل يدعى « مونجولفييه » .. فقد زعم هذا الرجل ان باستطاعته ان يصعد إلى طبقات الفضاء ، مستعينا بكرة من الورق مليئة بالهواء . وكان من الطبيعى ان يجد مثل هذا الزعم لدى الناس انكارا يصل إلى درجة التكذيب .. وافضى التكذيب ــ من ناحيته ــ إلى التحدى العلنى ، وإلى مطالبة « مونجولفييه » بتجربة اختراعه عمليا ..

وانبرى احد ربابنة السفن التجارية لتأييد «مونجولفييه» ، واعلن عن استعداده لأن يقوم بالتجربة بنفسه ، فى (اكس

ان بروفانس) ، وحدد لذلك اليوم الأول من شهر يونيو من ذلك العام .. وقد أثار هذا النبأ ضجة مدوية ، فان التحليق فى الجو ، على كرة من ورق ، حدث خارق . لذلك تقاطر الناس على (اكس ان بروفانس) من كل حدب وصوب ، حتى ضاقت المدينة على سعتها ، وشاع فى جوها الصخب !

مركيزة مذبوحة فى فراشها !

وفجاة ، سرى فى المدينة نبأ صرف الناس عن الحدث النادر الذى شغل تفكيرهم اياما طويلة ،والذى كانوا يرتقبونه فى شغف وفضول مشبوب . فقد شاع ان جريمة ارتكبت فى قصر (دى كور) ، مقر المركيز « دانتر كاستو » وزوجته .

ففى صباح ذلك اليوم بالذات ، ولجت وصيفة المركيزة مخدع مولاتها ، فاذا بها تجدها مسجاة فى فراشها ، ذبيحة ! .. ولما كان زوجها ــ « جان باتيست دى برونى » ، مركيز دانتر كاستو ــ من أعرق سادة الإقليم ، ومن أرفعهم مقاما ، لاسيما وانه كان رئيسا للبرلمان الإقليمى ، فان السيد « لوبلان » ــ النائب العام ــ خف إلى القصر ، بمجرد ان نمى النبأ إلى علمه ..

وكانت المركيزة الشابة فى فراشها ، وقد قطع حلقها ، واغرقت الدماء اغطية الفراش. وقرر الطبيب ـ الذى استدعى فى الحال ــ انها لفظت آخر انفاسها قبل ان يكتشف مصرعها بأربع ساعات او خمس .. وبدأ زوجها مرتاعا ، شاحب الوجه ، محزونا .. وراح يردد فى حيرة بالغة : « كيف تسنى

ان يحدث هــذا ؟ » . ثم لم يقــو على رؤية المنظر المروع ، فتهالك واوشك ان يغمى عليه لولا ان نقل إلى مخدعه ..

كل شيء هادىء فى القصر ..

والفى النائب العام نفسه أمام جريمة غامضة ، لم يكد يلوح له خلال غموضها قبس من ضوء يرشد إلى الجانى .. واقبل يســأل الخدم واحدا واحدا : فســأل « مارى بال » وصــيفة المركيزة ، و « أوجيست رينو » وصــيف المركيز ، و « كلود بارنوان » الخادم الخاص للمركيزة ، و « فيجبيه » الطاهى ، و « بوكيون » حارس البــاب .. ولكن احدا لم يستطع ان يدلى بشيء ذى قيمة .. لقد أجمعت اقوالهم على ان احدا لم يفطن إلى حدوث شيء غير عــادى ، فى الليلــة السابقة .. فان كلا من المركيزة والمركيز قد تناول عشــاءه خارج القصر فى تلك الليلة ــ كل لدى اصــدقاء غير الذين كان زوجه فى ضيافتهم ! ــ وقد كانت المركيزة هى الأولى فى العودة ، ثم لحق بها المركيز ــ فى الحال تقريبا ــ فقضــيا بضع دقائق فى الحديث عما شاهداه وســمعاه فى ليلتهما ، ثم انصرف كل منهما إلى مخدعه .. فقد كانا ينامان فى مخدعين مستقلين ، تفصل بينهمــا قاعة للجلوس . ولم يســمع احد ــ خلال الليل ــ اى صوت فى داخل القصر او فى الحديقة .

وعنى النائب بتبين ما إذا كانت ثمة سرقة قــد حدثت ، فوجد ان مخدع المركيزة وحده هو الذى كان فى حال غير عادية .. كانت قطــع الأثاث فى غــير اماكنهــا ، وكانت الادراج

مفتوحة عنوة ، وقد تناثرت محتوياتها فى كل مكان .. وبينها نقود ذهبية ، وحلى ومجوهرات ثمينة !

المرء لا يقتل نفسه ثلاث مرات !

وادلهمت دياجير الحيرة التى اكتنفت النائب العام .. وإزاء انعدام حافز السرقة ، وتأكيد الجميع ان احدا لم يسمع صــوتا او جلبة ، خطر له ان المركيزة لا بد قد انتحرت ، وان الفوضى التى سادت الحجرة كانت من صنعهــا ، فى غمرة حيرتها ، او فى حرصها على إعدام بعض أشياء خاصــة بها ، قبل ان تفارق العــالم . ولكن أهل القصر استهجنوا هــذا الخاطر ، فقد عهدوا فى مولاتهم رزانة وتقــوى تصدانها عن مثل هذا التصرف .. وان فكرة الخلاص من الحيــاة ــ على هذه الصورة ــ لم تساورها فى اشد الملمات المحزنة .

ورؤى استشارة الطبيب مرة اخرى ، فذكر ان الوفاة حدثت نتيجة ثلاث ضربات بســلاح حاد ، وان كل ضربة من الثلاث كانت قاضية .. ولا يعقل ان يقتل المرء نفســه ثلاث مرات بيده .. وإذا كانت الضربة الأولى كافية للقضاء عليه ، فكيف تجرى يده بالسلاح مرتين اخريين ؟

وإزاء هــذا عدل النائب العــام عن الافتراض القائل إن المركيزة قد انتحرت .. ورجح انهــا ماتت قتيلة .. ولكن ، منذا الذى قتلها ؟

هذا هو السؤال الذى لم يكن ثمــة بد من البحث عن جواب له ، مهما يكبد ذلك من جهد !

القاتل .. من أهل القصر !

وعاد النائب العام إلى سؤال الخدم ، وقد استعان بالضابط الجنائى لمدينة (اكس أ) ، السيد لانج دى سوفران .

وكان الزوج ـ فى تلك الأثناء ـ قد تمالك نفسه شيئا فشيئا ، فلما سئل اكد انه لم يسمع اية حركة تريبه فى تلك الليلة ، واعلن انه لن يهدا ولن يستكين ، حتى يعثر على الجانى الأثيم .. وقد ذهب فى ذلك إلى حد انه راح يقول : « اننى انزل عن نصف ثروتى فى سبيل الكشف عن القاتل ! »

وما لبث حزنه ان طغى عليه حتى أنه لم يعد يقوى على البقاء تحت سقف القصر الذى شهد الجريمة الشنيعة ، فآثر أن يهجره ، وأن يقيم لدى عمة له تدعى « مدام دى بلونديل » ، كان قصرها المحوط بحديقة شاسعة ، يقع فى ضاحية فى أقصى اطراف المدينة ..

وكان النائب العام والضابط الجنائى قد اعادا سؤال الخدم ، فلم يدل هؤلاء بشىء جديد . ولقد فحصا كل شبر فى الدار ، فلم يصلا إلى اثر واحد يشى بالجانى . ومن ثم فانهما ناقشا الأمر مع المركيز ، قبل مبارحة القصر ، عسى ان يتذكر اى عدو يحتمل ان يكون المجرم المنشود ، ولكنه قال إنه إزاء الظروف والملابسات المحيطة بالجريمة يرى ان القاتل ولا بد من المقيمين فى القصر ، ولعله احد الخدم !

« الموسى » الغائبة من خزانة المركيز !

وصادف هذا الرأى هوى من نفس الضابط الجنائى السيد « لانج » ، فقرر أن يعمل على هداه . وكان خدم القصر قد احتجزوا فى داخله ـ منذ البداية ـ تحت رقابة لم تمكن احدا منهم من أن يغادر القصر أو يتصل بأحد خارجه . فاستدعاهم السيد « لانج » واحدا بعد واحد ، واخذ يلاحق كلا منهم بأسئلة دقيقة ، ويضيق عليه الخناق ، مستخدما ابرع اساليبه وحيله .. ولكن كلا منهم كان يكرر عين ما قاله فى التحقيقين السابقين .

على ان خادما منهم أبدى اضطرابا وهو يعتصر ذاكرته ، عندما سئل للمرة الثالثة .. ذلك كان « أوجيست » وصيف المركيز . واستغل المحقق هذا الاضطراب ، فأخذ ينهال عليه بالأسئلة ، حتى قال اخيرا : « الواقع اننى فطنت إلى غياب موسى من خزانة ادوات الزينة الخاصة بمولاى » .

وسأله المحقق وقد أرهف النبأ حواسه : «وبماذا تعلل ذلك ؟ » .. فأجاب الوصيف حائرا : « لست أدرى ، ولكنى متأكد من غياب الموسى ، فقد أزلت بنفسى شعر لحية سيدى المركيز بالأمس ، ثم نظفت الموسى ورددتها إلى مكانها .. وفى هذا الصباح ، فتحت الخزانة لأعد العدة لمباشرة زينة مولاى ـ ولم يكن الحادث المشئوم قد عرف بعد ـ فلاحظت اختفاء تلك الموسى بالذات ! » .

.. وقميص غائب ، كذلك !

وتفقد السيد « لانج » بنفسه خزانة أدوات الزينة ــ فى جناح المركيز ــ والمكان الذى كانت تشغله الموسى منها ، ثم راح يلح بالأسئلة على الوصيف ، وقد داخله الشك فى أنه هو الذى اخذ الموسى ، ولكن « اوجيست » اقسم باغلظ الايمان ، مبرئا نفسه .. وما كانت الأيمان يوما بالوسيلة إلى اقناع المحققين . لذلك فتش الضابط حجرة الوصيف ، فلم يهتد إلى اثر للموسى . وعاد يفتش جميع غرف القصر ..

وفى خزانة ثياب المركيز ، كانت ثمة مفاجاة اخرى للمحقق .. فقد تبين « اوجيست » ان واحدا من اقمصة المركيز ــ التى كان يعرفها بحكم عمله ــ قد اختفى من الخزانة .. ولم يسفر البحث عن العثور عليه ، أو على أثر باق منه !

وادى غياب الموسى والقميص إلى اشتداد الغموض ، وإلى تحير السيد « لانج » ، حتى انه اضطر إلى تأجيل التحقيق إلى اليوم التالى ، إذ ان التفكير فى ذلك شتت عقله ، فلم يستطع المضى فى سؤال بقية الخدم !

على ان السيد « لانج » لم يكد يبرح القصر ، حتى انتحت « مارى بال » ــ وصيفة المركيزة ــ بأوجيست جانبا ، وسالته عن سر ما كان عليه من اضطراب ، فعاد يقسم باقدس الايمان على براءته . ثم اردف قائلا إن ما اثار ارتباكه هو شعور راوده ــ حين كشف امر اختفاء الموسى ــ بأنه إنما كان يتهم بذلك مولاه الذى لم يعهد فيه سوى كل طيبة ،

وتقوى ، ونبل اخلاق .. ومن ثم فقد كان يخشى ان يسىء بذلك إلى المركيز .

ولم تناقشه « مارى بال » فى ذلك ، ولكنها راحت تقول إن من واجب المرء أن يدلى للعدالة بكل ما يكون لديه ، مهما يكن تافها او غير ذى بال فى نظره ، ما دام مطمئنا إلى براءته ، وإلى صدق مقصده . وأردفت أنها لن تكتم عن المحقق ــ إذا ما سألها فى اليوم التالى ــ شيئا مما لاحظته أو لمحته ، عسى ان تستطيع بذلك ان تساعد العدالة على الوصول إلى المجرم الذى قضى على مولاتها بتلك الوحشية الضارية !

وهج فى نافذة المركيز ..

واستانف السيد « لانج » التحقيق فى الصباح التالى ، فبدأ اول ما بدأ بالتحرى عن المسالك التى كان من المحتمل ان يتسرب خلالها اى أجنبى إلى مخدع المركيزة ، ولكنه لم يعثر على اى اثر لمتسلل ، ولم يكتشف ما ينم عن ان احدا ولج القصر من غير ابوابه العامة !

وتقدمت إليه ــ فى تلك الأثناء ــ احدى المقيمات على مقربة من القصر ، وتطوعت بالشهادة بانها استيقظت فى الفجر الذى اعقب ليلة الاغتيال ، لتتأهب للذهاب مبكرة إلى الساحة التى كان مقررا إجراء تجربة الطيران فيها . وفيما كانت تستعد ، لمحت وهجا شديدا فى نافذة حجرة ظهر انها كانت مخدع المركيز .. ولو ان الوقت كان شتاء ، لما بدا ثمة داع للعجب او الدهشة . ولكن اشتعال النار بين جدار مخدع ، فى شهر

يونيو ، كان خليقا بأن يثير الشبهات .. وبالفحص ، تبين « لانج » أن ثمة آثار أوراق وأقمشة قد أحرقت فى مدفأة مخدع المركيز !

واشتدت حيرة الضابط الجنائى .. ترى ما الذى دعا المركيز إلى احراق تلك الأوراق والأقمشة ؟ .. وما كنهها ؟ .. وهل كان من قبيل المصادفة أن تحرق فى عين الليلة التى شهد فيها المخدع المجاور جريمة الاغتيال ؟

همسات .. وظواهر مريبة !

وقبل أن يمضى السيد « لانج » قدما فى تحرياته طلبت الوصيفة « مارى بال » أن يسمح لها بالإفضاء ببعض أقوال لديها . فلما أجاب رجاءها ، انطلقت تتكلم دون توقف .. فذكرت أنها فاجأت مولاتها — فى عدة ليال — وهى تبكى لتكرر تغيب المركيز عن القصر .. وكانت تبادره — عند عودته — باللوم ، فيرد لومها فى غضب ، مما كان يثير بينهما الشقاق والمشاحنات .

.. وخفت صوتها وهى تردد الأقاويل التى شاعت بين خدم القصر ، عن حادث وقع للمركيزة .. فقد قدر لها أن تحمل — بعد طول ارتقاب — ولكن الحمل لم يكتمل ، إذ حدث أن زلت قدمها يوما ، فوقعت على سلم القصر .. وكان الخدم يتهامسون — فيما بينهم — بأن هذا الحادث لم يأت عفوا ، وإنما كان مدبرا !

كذلك ذكرت « مارى » أن المركيز قدم — ذات مساء — إلى زوجته كوبا من شراب الليمون ، أعده بنفسه ، ولكن المركيزة لم تكد تتذوقه حتى ارتجفت شفتاها ، وتقلصت عضلات وجهها ، وأبت أن تتناوله !

واختتمت « مارى » أقوالها بما يسرى من همسات عن علاقة بين المركيز وحسناء تدعى « مدام دى سان سيمون » .. ولم يضيع المحقق وقتا ، بل انصرف لتوه إلى النائب العام ، وقد تجلى له أن الأمر أخطر من أن يستهان به .

وكان المركيز دانتر كاستو يقيم — فى تلك الأثناء — فى قصر « مدام دى بلونديل » ، وهو نهب لمشاعر وانفعالات عنيفة ، لم تكن تدع له سبيلا للراحة .. فكان يروح ويغدو فى أرجاء القصر مضطربا . ويكثر من الاختلاء بنفسه ، ويرفض أن يلتقى بالناس .. حتى لقد أبى أن يستقبل من أقبل لتعزيته من أعضاء البرلمان الإقليمى .

وفى صباح اليوم الثالث ، كان يجلس إلى المائدة مع عمته وصديق حميم لهما يدعى « المركيز دى شاتونيف » ، وإذا وصيفه « أوجيست » يلتمس مقابلته .. وبادر المركيز باستدعائه ، ثم سمح له بالكلام أمام عمته وصديقه ، فروى له الوصيف ما أفضى به للمحقق عن اختفاء الموسى، وما تكشف من اختفاء أحد أقمصته .. وراح المركيز يصغى فى صمت ، وهو مقطب الجبين ، حتى إذا انتهى الوصيف ، غمغم المركيز فى غيظ وسخط : « يالك من أحمق ! » .

وذكر له الوصيف ما افضت به « مارى بال » للمحقق ، فشحب وجه المركيز ، وهتف مرة اخرى : « يا للفتاة الغبية الثرثارة ! » . ثم لاذ بالصمت .

الدائرة تزداد ضيقا !

وما إن انصرف الوصيف ، حتى ساد قاعة المائدة صمت واجم ممض . ثم قال المركيز دى شاتونيف : « لا مراء فى ان السيد لانج دى سوفران من اذكى المحققين .. وهو لا يالو جهدا فى السعى وراء اى مجرم يتولى قضيته .. وارى انه لم يلجا إلى النائب العام ، الا لأن شكوكه تتجه إلى شخصية عظيمة المقام ، فراى ان يستمد التاييد من رؤسائه فيما هو مقدم عليه ! » .. ولم ينبس « دانتر كاستو » ببنت شفة ، فقالت عمته : « احسبك قد ادركت ان الشكوك تتجه إليك ، وانى لآمل ان تكون شكوكا غير صحيحة . ولكنك اجدر بأن لا تضيع وقتا ، وعليك ان تعمل على هدى ما يوحى به ضميرك . فإذا كنت موقنا من براءتك ، فعليك ان تسلم نفسك للنائب العام ، إلى ان تنجلى الحقيقة . اما إذا .. » .

وترددت لحظة ، ثم استجمعت جرأتها وقالت : « اما إذا كنت ـ لسوء الحظ ـ مدانا ، فمن واجبك ان تبادر بمبارحة فرنسا بأسرها ، حرصا على شرف الأسرة وكرامتها ! » .

واشتد شحوب وجه «دانتركاستو» ، ولكنه ظل صامتا . فعادت عمته تسأله : « علام استقر رأيك ! » . وكان جوابه : « دعينى افكر ! » .

المركيز يؤثر مغادرة فرنسا !

وفكر طويلا ، ولكنه لم يلبث ان قال لعمته فى النهاية : « إذا امكنك ان تزودينى ببعض المال ، فانى اوثر ان ارحل ! » .. وكان هذا الجواب اعترافا واضحا منه بالجريمة !

وسرعان ما اعدت « مدام دى بلونديل » لابن اخيها عربة خفيفة ، استقرت امام الباب الخلفى لقصرها . ثم زودته بقدر من العملة الذهبية .. وبعد نصف ساعة ، صعد المركيز إلى العربة ، بغير متاع ، فتهالك على مقعدها مهموما !

وانطلقت العربة بأقصى ما كان لدى جواديها من سرعة ، ميممة شطر (مارسيليا) .

وفى تلك الاثناء ، كان السيد « لانج » قد حصل على سلطة واسعة ، فراح يتجه فى التحقيق اتجاهات جديدة .. وسرعان ما تجلت له الحقيقة واضحة ..

سعادة وثقة .. بين الزوجين

كانت « مدام دنتر كاستو » قد تزوجت من المركيز وهى فى التاسعة عشرة من عمرها ، بينما كان هو يصغرها بعام واحد . وكان من الواضح انها زيجة دبرت كما لو كانت صفقة تجارية ، على غرار ما كان متبعا فى تلك الأيام ، فى اسرات الطبقة العليا . بيد ان هذا لم يحل دون أن ترفرف السعادة على الزوجين ، وان تطمئن المركيزة إلى زوجها فتعهد بثروتها إليه ، فضمها إلى ثروته ، وتولى رعايتها معا وهو مطلق اليد فيهما .

ومع ان المركيزة — وكان اسمها الأصلى « انجيليك » — لم تكن جميلة الوجه ، الا انها كانت بديعة القوام ، ذات اخلاق دمثة ، وطباع رقيقة ، وعينين جذابتين تفيضان رقة وطيبة واخلاصا .. كما كانت ذات ذكاء لماح ، وشخصية قوية . فسرعان ما امسكت بمقاليد القصر بيد حكيمة ، فأعجب زوجها بتدبيرها ، ولم يتردد — إزاء كثرة أعبائه ، كرئيس لبرلمان الإقليم — فى ان يكل اليها شئون ثروتهما وممتلكاتهما المشتركة ، فادارتها ببراعة اغتبط لها المركيز ..

صائدة بارعة تلقى شباكها !

وعاش الزوجان محلقين فى اجواء السعادة زهاء ست سنوات ، إلى ان قدر لامراة غريبة أن تتسلل إلى حياتهما .. او إلى حياة المركيز على الأصح .

وكانت تلك المراة تدعى « سيلفى دى سان سيمون » .. كانت ابنة احد اعضاء البرلمان ، وقد ترملت قبل سنوات ، وانصرفت إلى الحياة الاجتماعية ، فلمع نجمها فى الأوساط الراقية ، لاسيما وانها كانت ذات جمال باهر ، وجراة عجيبة تسول لها ان تسعى إلى اغراضها دون أن تعبأ بالناس !

واعجبت « سيلفى » بالمركيز الشاب ، فلم تتورع عن طرح شباكها عليه ، واستخدمت كل ما اوتيت من فتنة وإغراء فى سبيل اجتذابه .. ولقد حاول المركيز ان يقاوم محاولاتها ، واستطاع ان يصمد زمنا ، ولكنه لم يلبث ان وقع صريع الفتنة ، فلم يعد يرى سوى « سيلفى » الحسناء ، ولم يعد يعيش إلا على حبها !

.. وحل الشقاق محل الوئام

وحاول العاشقان أن يتكتما هواهما ما استطاعا . ولكن محاولاتهما لم تدم طويلا ، إذ لم يلبث الأمر ان شاع فى المجتمع الراقى فى (اكس) . ولم يكن غريبا — بعد ذلك — ان تتناهى الشائعات إلى اذنى المركيزة دنتر كاستو ، فتلقى اضواء على بعض تصرفات كانت قد لاحظتها على زوجها فى الفترة الأخيرة .. إذ كان المركيز قد بدأ ينصرف عنها ، ويهمل بعض واجباته كزوج ورب اسرة . فضلا عن أنه كان يكثر من طلب المال وانفاقه فى اسراف .. ثم لم يلبث أن بدأ يرى فى إدارة زوجته لثروة الأسرة ذلة ومهانة له ، وهو الرجل ، رب الأسرة ، فأخذ يسعى لاسترداد سلطانه .

ودب الشقاق بين الزوجين اللذين كانا مثالا للسعادة الزوجية .. وشعرت « أنجيليك » بأن تردى زوجها فى هوى تلك الأرملة الحسناء ، طعنة قاسية أصابت قلبها وثقتها وكرامتها . لذلك شعرت بازدراء شديد له ، فلم تحاول أن تناضل من أجل استرداده ، ولم تشأ ان تطالبه باكثر من أن يتحفظ فى علاقاته بعشيقته ، وبأن يصون المظاهر التى كانت تتطلبها مكانتهما الاجتماعية كزوجين ، حفاظا لكرامة الأسرة !

اضواء تكشف الجريمة

وكان خليقا بالزوج أن يحمد لها هذا المسلك ، وان يقتنع بما ابدته إزاء هواه . ولكن المفتون لم ينفك يسعى لاسترداد سيطرته على ثروة الأسرة ، فرات زوجته فى هذا التكالب منه

سبيلا إلى الانتقام لكرامتها ، وتشبثت بما كان قد اوكله إليها طواعية من حق الاشراف على تلك الثروة ..

واثار هذا الأمر بينهما مشاجرات عديدة ، ولكن شيئا لم يقو على أن يزحزح المركيزة عن رأيها العنيد . ومن ثم بدأ المركيز يدبر الخطط للتخلص منها .. وكان هو الذى تسبب فى انزلاقها ووقوعها ــ وهى حامل ــ املا منه فى أن تموت اثناء الاجهاض ! .. كما كان هو الذى عمد ــ فى مرة أخرى ــ إلى دس السم فى كوب الليمون الذى ابت المركيزة أن تشربه !

ثم كانت تلك الجريمة التى أقامت (أكس) واقعدتها .. فقد كان هو الذى ذبح زوجته بالموسى ، إذ تسلل إلى مخدعها ـ اثناء نومها ـ فى تلك الليلة المشئومة . ثم اغتصب ادراجها، واخذ منها كل الوثائق التى كانت كفيلة بأن توجه الشبهات إليه ، فاحرقها مع القميص الذى كان يرتديه وقت الجريمة ، والذى لطخته الدماء .. وظن انه بذلك قد نجا من سطوة العدالة . ولكن الأحداث خيبت ظنه !

قبر .. فى دير اسبانى

كل هذه الحقائق اكتشفها السيد « لانج » ، وجمع الأدلة والقرائن التى كانت تدعمها . وجريا على التقاليد التى كانت متبعة إذ ذاك ــ نظرا لامتيازات النبلاء وأمراء الإقطاع ــ عرضت القضية على لجنة برلمانية خاصة ، لم تلبث ان اصدرت حكمها باعدام المركيز ــ بقطع رأسه ــ ولكن .. فى تستر بعيد عن العلانية ، نظرا لمكانته ! .. أما « مدام دى

سان سيمون » ، فلم يثبت أن لها أى دور فى الجريمة فبرئت ساحتها ..

على أن يد الجلاد لم تستطع أن تمتد إلى المركيز ، إذ أنه هرب إلى ايطاليا ، عن طريق جبال الألب ، ووصل إلى (نابولى) تحت اسم مستعار . وهناك نمى إليه أن الحكومة الفرنسية قد اهتدت إلى مكانه ، وطلبت إلى السلطات الايطالية أن تسلمه إليها ، فلم يتوان عن الفرار إلى اسبانيا ، حيث لجأ إلى أحد الأديرة ــ تحت اسم مستعار ــ وانخرط فى سلك رهبانه !

وإلى هنا ، تعتبر حياته قد انتهت .. فقد فقد اسمه ، وفقد صلته بوطنه ، وفقد صلته بالحياة الاجتماعية .. على أن النهاية الحقيقية لحياته لم تحن إلا بعد عام كامل من وفاة ضحيته ــ أو بالأحرى ، فى ١٦ يونيو سنة ١٧٨٥ ــ إذ مات بداء الصدر ، فى صومعة فى الدير .. ودفن فى قبر منزو ، تحت اسمه المستعار !



نساء ومآسٍ
في ساحة العدالة

انتقام عاشقة

للكاتب والمؤرخ الفرنسي : " روچيه ريچي "

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب ، ست حلقات من هذه السلسلة التى توفر على التأليف فيها الكاتب والمحقق الفرنسى « روجيه ريجى » ، وجعل لها عنوانا مشتركا لجميع حلقاتها ، هو « نساء ومآس فى ساحة العدالة » .. وهى مجموعة من المحاكمات التاريخية يجمع بينهـا قاسم مشترك واحد ، وهو ان المجرم الحقيقى فى كل حلقة منها : امراة ! .. وقـد كتبهـا « روجيه ريجى » باسلوب الاديب والمحلل النفسانى ، لا المحقق او المؤرخ فحسب . وهكذا قرات فى فصل سابق من الفصل الأول من الكتاب ماساة « الغانية السمراء » ، وفى فصل آخر : « الجثة الحائرة » ، وفى فصل ثالث : « العشق الحرام » ، وفى فصل رابع : « الغانية الخطرة » ، وفى فصل خامس : « عجز الملك عن انقاذها » ، وفى فصل سادس : « اضله الهوى » .

وهنـا اقـدم لك فيما يلى حلقة جديدة من هذه السلسلة من المحاكمات التاريخية الإنسانية الممتعة ، « بطلتها » — إذا جاز هذا الوصف — حسناء شاذة الأطوار ، مريضة النفس .. كما ستبدو لك من خلال الصفحات التالية :

لم يعبا بنصيحة كازانوفا !

عندما تقدمت السن بـ « كازانوفا » ، عكف العاشق الكبير على تدوين مذكراته الغرامية الحافلة ، مضمنا اياها طائفة من النصائح والارشادات التى وجهها إلى الرجال ، كى تعينهم على التغلب على « مكائد النساء » ! .. وقد تضمنت

تلك النصائح — فيما تضمنت — تحذيرا للمحبين « الناشئين » من الفتيات « اليافعات » ، غير المجربات ، وتوصية شديدة بتجنب طريقهن ، والابتعاد عنهن جهد الطاقة !

على انه يبدو ان بطل قصتنا هذه لم يعر نصيحة العاشق المجرب ادنى التفات ، فاذا بعدم تبصره يودى به إلى ماساة ، لطخت شرفه بالخزى والعار .. وسرعـان ما تطورت إلى قضية كان لها دوى كبير فى فرنسا منذ اكثر من قرن من الزمان !

ففى عام ١٨٣٤ ، كانت مدينة (سومور) — مثل معظم المدن الفرنسية الصغيرة فى تلك الوقت — تنعم بالهدوء والسكينة ، وتنفر من كل ما من شانه ان يعكر صفو حياتها الرتيبة .. وكان لوجود سلاح الفرسان فى المدينة اثره — مع ذلك — فى تمتعها بنوع من النشاط والحيوية ، إذ كثيرا ما كان الفرسان الشبان يسيرون فى شوارع المدينة بملابسهم الزاهية الألوان ، وقد تمنطقوا بسيوفهم البراقة فى زهـو واعتداد ، مما كان يخطف ابصار الفتيات ويلهب مشاعرهن !

وكان يتولى قيادة سلاح الفرسان الفرنسى فى ذلك الوقت ضابط فى السادسة والأربعين من عمره ، وسيم القسمات ، تبدو على وجه امارات النبل والحسب ، يدعى « البارون دى موريل » . وكان له تاريخ عسكرى مجيد ، فقد اظهر بطولة فى حروب الامبراطورية ، وشارك — بعد عودة الملكية — فى الحملة على اسبانيا ، مما جعله يتمتع بشهرة واسعة بين اقرانه من الضباط . ومع انه كان دائم الانصراف إلى عمله ،

معروفا بصرامته المتناهية فى كل ما يتعلق بصون النظام بين الوحدات الخاضعة لقيادته ، فقد كان رجلا اجتماعيا من الطراز الأول ، يحظى بحب المدنيين ، وثقة مرءوسيه من العسكريين على السواء . اما زوجته ، فكانت امراة تناهز الاربعين ، تنحدر من اسرة طيبة ، لها جمال مهيب يجعلها تشبه ربات الأساطير القديمة فى جلالهن ، ومظهر الوقار والحكمة البادى عليهن !

المأساة تبدا فى حفلة عشاء !

وكانت للزوجين « دى موريل » ابنة تدعى « مارى » ، توشك ان تبلغ السابعة عشرة ، وابن اسمه « روبرت » لم يكن يجاوز السادسة من عمره .. وخلال اشهر الشتاء ، كانت « مدام دى موريل » تمكث مع ولديها فى (باريس) ، حيث حياة الاستقبالات والحفلات التى تفتقر اليها مدينة (سومور) الصغيرة فى ليالى الزمهرير القارسة . ولكن لم يكن يحل فصل الربيع ، حتى كانت الزوجة تلحق بزوجها فى (سومور) ، حيث كان يقيم فى منزل كبير ذى طابقين ، يقع على ضفاف نهر (اللوار) ..

.. وقد بدأت فصول المأساة فى احدى حفلات العشاء التى اقامها البارون دى موريل وزوجته . وفى تلك الليلة وجهت الدعوة ، لأول مرة ، إلى ضابط شاب كان البارون قد ظل يغلق بابه فى وجهه ، نظرا لما كان يلطخ اسمه من سمعة مشينة ! .. وكان الشاب المذكور يدعى الفيكونت « اميل دى

لارونسيير » ، وكان ينتمى إلى اسرة عريقة من العسكريين ، حتى ان اباه كان واحدا من كبار الضباط الذين ابلوا احسن بلاء فى حروب « نابليون » . وكان طبيعيا ان يسير الشاب على نهج والده ، وأن يتطلع إلى تسجيل اعمال بطولية فى الميدان ، ولكن لما كانت فرنسا تعيش إذ ذاك فى فترة سلم ، فقد بدات حياة الثكنات تبعث الملل فى نفس الشاب « اميل » ، وتدفعه إلى الانغماس فى اللهو ، والمقامرة ، ومعاشرة النساء !

على انه ما من حدث يمكن ان يخفى أمره على فضول الناس ، ومن ثم ، فحين اقبل الضابط الفارس إلى مدينة (سومور) – قبل ذلك التاريخ بنحو عامين – كانت سمعته المزرية قد سبقته اليها ، ولا سيما انه استباح لنفسه ان يصطحب معه خليلة تدعى « ميلانى » ، وأن يأويها معه تحت سقف واحد ، غير عابىء بما قد تثيره فعلته من اقاويل وامتعاض بين اهالى المدينة الوادعة !

وكان لا بد لشاب يعيش على الملأ مع عشيقة له ، ان يبعث مسلكه على استنكار رؤسائه ونقمتهم . وحين افهموه ذلك ، ابى فى أول الأمر ان يصغى اليهم ، ولكنه ما لبث فى النهاية ان اذعن لفراق حبيبته ، فعادت إلى باريس ، مكتفية بالتردد عليه بين الحين والحين ، لقضاء بضعة أيام معه .

تقع فى هواه ، رغم سمعته المشينة !

وإذ أنقذ الشاب المظاهر ، عادت الأبواب المغلقة تفتح فى وجهه مرة أخرى ، وعندئذ قرر الجنرال « موريل » أن

يدعو مرءوسه إلى حضور مادبة العشاء التى كن سيقيمها فى داره فى ذلك المساء .. وشاءت المصادفات ان يكون مجلس ابنته الآنسة « دى موريل » ــ التى كانت تظهر فى المجتمعات ليلتئذ لأول مرة ــ بجوار الفتى « إميل دى لارونسيير » .. وفى الحال ، راحت الفتاة تبدى اهتماما ظاهرا بجارها الشاب الذى أوتى ــ رغم انفه الممدود وعنقه القصير ــ طلعة تفيض بالبهجة والسحر ، وصوتا عذبا رقيقا ، ولفتات اشبه بلفتات النساء ! .. على ان اشد ما اجتذب الفتاة اليه إنما كان سمعته كشاب عابث اشتهر بمغامراته النسائية ، وغرامياته الفاضحة ، وديونه فى المقامرة .. فاذا هى تعجب به وتميل إليه ، دون سائر الضباط الآخرين الجالسين حول المائدة ، الذين كانوا ــ على العكس ــ شديدى الحرص على الظهور بمسلك قويم ، ولا غبار عليه !

ومن هنا ، ما إن بدأ الحاضرون يتجاذبون اطراف الحديث ، حتى مضت الفتاة ــ « مارى » ــ تتحدث إلى جارها بصوت هامس .. ولم تكن عباراتها فى بادىء الأمر تتعدى بضع كلمات مألوفة، وخواطر عادية ، واسئلة لا اهمية لها . وكان « لارونسيير » يجاوبها فى أدب جم ، ولكن فى اقتضاب ظاهر ! .. كان ــ على ما يبدو ــ لا يظهر اكتراثا بحديث الفتاة ، ولا بالفتاة ذاتها ، رغم انها بدت اشد ما تكون فتنة واغراء ! .. ومن ثم راحت «مارى» تعاود الكرة ، مستميتة فى محاولة الاستئثار باهتمام الشاب ، أو ــ فى القليل ــ لفت نظره اليها .. ولكنه ظل على اعراضه عنها ، منصرفا إلى

التحديق فى والدتها « مدام دى موريل » ، ربة الدار ، التى كانت تجلس ــ فى هيئة امراة الاربعين ووقارها ــ قبالة زوجها ..

تدبر له المكائد .. لإعراضه عنها !

وما إن انصرف المدعوون ، وانفردت « مارى » بوالديها ، حتى تجهم وجهها ، ولاح عليها الاكتئاب . وإذ سالاها عن سبب ما ينتابها من حزن ، اجابتهما بقولها :

ــ اننى اريد ان اشكو لكما السيد « دى لارونسيير » .

ولما ابديا دهشتهما لقولها ، استطردت تقول : « انه لم يحترمنى ! اجل ، فقد قال لى : « ان لك يا آنسة والدة فاتنة ، ولا بد أنك تعسة إذ لا تشبهينها الا فى القليل ! » » .

ولعل الجنرال قد ارتاب فى مزاعم ابنته ، إذ ما لبث أن طيب خاطرها مؤكدا لها أنه حتى لو كان الشاب قد تفوه بتلك العبارات بالفعل ، فلا شك انه كان يقولها على سبيل المزاح، وهو أمر لا يجدر بها ان تعيره أدنى اهتمام ! .. وعلى اثر ذلك طلبت اليها والدتها أن تعود إلى غرفتها بالطابق الثانى ، حيث كانت وصيفتها فى انتظارها لتساعدها على أن تخلع ثيابها وتأوى إلى فراشها .

ولكن ، لم تكد تنقضى أيام قلائل ، حتى عثرت « مدام دى موريل » ــ فى مكان ظاهر فوق « تسريحتها » ــ على رسالة مجهولة ، او أريد لها ان تبدو كذلك ، وقعت بحرف

« الراء » .. وكانت الرسالة تتضمن اعترافا غراميا موجهــا إلى والدة مارى ، على حين وصمت فيها الفتــاة بأقذع التهم واحطهــا ! .. اما من هو الشخص المجهول الذى تجرأ على مكاشفة امرأة محترمة بحبه ، والنيل من ابنتهــا الوديعــة الطاهرة الذيل ، فلعل اول ما خطر ببــال « مدام موريل » فى هذا الصدد هو ان تلك الفعلة ما كان ليرتكبها سوى احــد الخدم الذين طردوا من المنزل ، او واحد من العسكريين الذين انزل بهم زوجها الجنرال عقابا .. ومن ثم رات الزوجة من الحكمة أن تحرق الرسالة ، ولا تفاتح زوجها فى أمرها !

الرسائل المجهولة تتوالى !

على أن ذلك التصرف الحــكيم ما كان ليجــدى والدة « مارى » شيئا ، إذ سرعان ما راح وابل من الرسائل الجديدة — التى ذيلت تارة بحــرف « الراء » وتارة اخــرى بتوقيــع « ا دى ر » — ينهال على منــزل الجنرال .. وكانت كلهــا تفيض بالسباب والشتائم ضد الفتاة ، وتحــوى ادق أسرار اسرتها ، واخص ما يدور بين افرادها من امور ! .. وذهب بعضهــا إلى حد اتهام ضــابط يدعى « ديستوبى » بالسعى للزواج من « مارى » ، بقصد الفوز ببائنتها ! .. وما لبث رب الدار أن عثر على واحدة من تلك الرسائل ، فبادر إلى اطلاع زوجته عليها ، ولكنه لم يخرج من مناقشته معها بنتيجة ما ، إذ اخفق كلاهما فى الاهتداء إلى شخصية صاحب الرسائل ، ومعرفة الغرض الذى قصد إليه من وراء إرسالها !

.. وفى تلك الأثناء ، التمس « ديستوبى » — الذى جاء

نكره فى الرسائل المجهولة — مقابلة سرية مع رئيسه الجنرال ! .. كان قد تلقى بدوره عددا من تلك الرســائل التى صيغت بنفس الأسلوب ، وكتبت بنفس المــداد ، وكانت الرســائل تتضمن النيل منه هو الآخر !

واستبد الجزع بالجنرال ، وطرا على ذهنه فى الحال ان يخرج من ملفاته تقريرا كان « دى لارونسيير » قد سلمه إليه مؤخرا ، حتى يضاهى خطه بالخط الذى حررت به الرسائل اللعينة . فقد خيل للجنرال ولمرءوسه الشاكى أن اليد التى خطت الرسائل والتقرير واحدة ، وأن « دى لارونسيير » كان ولا ريب هو كاتب الرسائل !

وكانت الحكمة تقضى باستدعاء الشاب موضع الاتهام ، وبحث الأمــر معه فى صراحة تامة ، بيــد ان الجنرال خشى الفضيحة ، فقرر — من قبيل الانتقام — أن يغلق بابه فى وجه الضابط غير المرغوب فيه ! .. فانتهز فرصة حضور الشاب فى إحدى المناسبات ، وابتدره بقوله : « لأسباب شخصية ، آمرك يا سيدى بالانصراف فورا ، وعــدم دخول هذا البيت مرة اخرى ! » .

وامتقع وجه « دى لارونسيير » ، ولكنه سرعان ما حيا الجنرال التحية العسكرية ، ثم دار على عقبيه وغادر المكان دون أن ينبس بكلمة . ولعله حسب ان رئيسه قد فطن إلى ما كان يبديه من اهتمام زائد بزوجته ، فعمد إلى التصرف معه على هذا النحو !

المهزلة تدخل طورا خطيرا !

ولم يكد ينقضى يومان على تلك الاحـداث ، حتى بدات الامور تتفاقم بشكل خطير : فقد استيقظت وصيفة الآنسة « دى موريل » فى جوف الليل فجاة على صوت انين واستغاثة منبعثين من مكان قريب ! .. فهرولت إلى الغرفة المجاورة ودخلتها ، فالفت الفتاة ملقاة على الارض ، وقد لف منديل حول عنقها ، بينما رفعت غلالة نومها إلى اعلى فخذيها ، كاشفة عن آثار دماء فوق جسدها البض !

وارتاعت الوصيفة ، وتملكها الجزع من الحالة التى رات عليها مخدومتها ، وإذ سالتها عن سر اصابتها ، تمتمت «مارى» بصوت واهن : « لقد مررت الآن بلحظات رهيبة ! .. انظرى، لقد تحطم زجاج النافذة .. فمنذ هنيهة ، دفع رجل بذراعه من خلال هذه الثغرة ، وإذا به يدير مقبض النافذة ثم لا يلبث ان يقفز داخل الغرفة وينقض على ، وهو ينفث كلمات تفيض بالحقد والكراهيـة ، ثم راح يحاول ان يزهق انفاسى بهـذا المنديل . وإذ اخفق فى محاولته ، اصابنى بمديته فى فخذى ، قائلا فى حنق « حسبك هذا ! » . وسرعان ما ولى الادبار من حيث اتى ! » .

ـ ولكن الم تتعرفى على هذا الرجل ؟

ـ بلى .. انه السيد دى لارونسيير !

ولكن على الرغم من تأوهات « مارى » ، فان حالتها لم تكن تنذر باى خطر ، واستطاعت الوصيفة ان تنزع المنـديل

من حول عنقها فى يسر ظاهر ، على حين لم تخرج آثار الدماء عن كونها مجرد خدوش سطحية ! .. ولما اقترحت عليهـا الوصيفة ان توقظ الجنرال وزوجته كى يستدعيا لها الطبيب، اعترضت على ذلك اعتراضا شديدا ، وسالتها فقط ان تقضى ما تبقى من الليل بجوارها .

وما إن اشرقت اشعة الصباح ، حتى علم والدا الفتـاة بامر الاعتداء الغريب الذى وقع على ابنتهما اثنـاء الليل ، فهرعا اليها ليقفا منها على جلية الامر ، وطلبا إليها ان تروى لهما تفاصيل ما حدث . على ان الخوف من الفضيحة جعلهما لا يفكران فى استدعاء اى طبيب ليقرر ما إذا كان المعتدى قد عبث بضحيته البريئة ام لا ، ومن ثم اتفقا فيما بينهما على تكتم ما وقع لابنتهما ، حتى تكشف لهمـا الأيام ما خفى عليهما من امور !

يبارز غريمه .. رغم انفـه

وفى ذات اليوم الذى تعرضت فيه « مارى » للاعتداء ، تلقى الضابط « ديستوبى » رسالة جديدة ، اشـد قسـوة واستفزازا من سابقاتها ، وكانت ممهورة فى هذه المرة بتوقيع « اميل دى لارونسيير .. » . وكان مرسلها يقول فيها : « انك لتعس جبان ! .. فلو كنت غير ذلك ، لجئت ـ بعد كل هذه الرسائل التى بعثت بها اليك ـ لتطلب منازلتى . ولكنك ، بدلا من ذلك ، اثرت ان تشى بى لدى الجنرال ! » .

وبالرغم من الوعد الذى قطعه « ديستوبى » على نفسه امام الجنرال بعدم الإقدام على اى شىء قد يزيد الأمور تعقيدا،

او يستثير فضول اهالى المدينة ، فقد تولاه هذه المرة غضب عارم جعله يبادر بتكليف صديقه الملازم « أمبير » بالذهاب لدعوة « لا رونسيير » إلى منازلته ! .. على ان إجراءات المبارزة ، وما تتطلبه من استعدادات ، استغرقت وقتا . وكان « لا رونسيير » فى تلك الأثناء يأوى فى مسكنه عشيقته «ميلانى» التى كانت قد اقبلت لقضاء بضعة أيام فى (سومور) . ولم تكن تساوره اية ريبة فى الأمر ، كما لم يتوقع زيارة اى شاهد يدعوه إلى تحديد مكان المبارزة وزمانها !.. حقيقة ان بعض زملائه فى الجيش كاشفوه بما يحوم حوله من اتهامات وأقاويل، بيد انه لم يصدق كلمة واحدة مما القوه على مسامعه ، بل اكد لهم انه يربأ بنفسه عن اقتراف مثل تلك الأفعال المزرية ، وانه كان قانعا سعيدا بحياته مع خليلته ، وما كان ليفكر لحظة واحدة فى « مدام دى موريل » ، او ابنتها ، او فى الضابط « ديستوبى » !

.. وما لبث « امبير » أن التقى بـ « لا رونسيير » ، واستطاع بعد لأى ان يحدد معه شروط المبارزة التى اتفقا على أن تكون بالسيف ، فى مكان بعيد ، على أن يرتدى الغريمان الملابس المدنية ، حتى لا يثيرا انتباه الفضوليين !

وما إن بزغت خيوط الفجر ، حتى وقف الرجلان وجها لوجه فى المكان المقرر .. ولكن « لا رونسيير » راى — قبل ان يلتحم مع غريمه « ديستوبى » — أن ينفى مرة اخرى ما وجه إليه من تهم ، فراح يؤكد له انه لم يكن صاحب الرسائل المجهولة ، وانه لم يبعث قط باية رسالة ، لا إلى اسرة

« موريل » ولا إلى اى شخص آخر ! .. على ان غريمه — الذى كان متعطشا إلى النزال — لم يحر جوابا ، واصر على ان يمضى فى الشوط حتى نهايته ! .. وسرعان ما بدأت المبارزة ، ولما كان « لا رونسيير » بارعا فى استخدام السيف — لا سيما وان حياته الغرامية الحافلة جعلته يألف مجابهة مثل هذه المواقف — فقد استطاع ان يصيب خصمه بجرح عميق فى فخذه ، ووضع حدا للمبارزة !

وإذ انصرف أحد الأطباء إلى العناية بالجريح ، دنا « لا رونسيير » من غريمه ، باسطا إليه يده ، ناشدا الصلح والوئام . لكن « ديستوبى » تجاهل اليد الممدودة إليه ، وهتف بغريمه : « لن اقبل اى تصالح معك ما لم تعترف بجرمك .. فاذا ما اعترفت — فى خطاب موقع عليه منك — بأنك صاحب الرسائل اللعينة ، فاننى اعدك بشرفى أن اطوى هذا الاعتراف فى صدرى ، وأن أهيل عليه تراب النسيان . أما إذا رفضت ، فاننى سأحيط الجنرال علما بالأمر ، وهو سيبادر بعرضه على القضاء ، وإذ ذاك ستطرد من الجيش ، وسط عاصفة من الخزى والفضيحة ! »

يعترف كذبا .. صونا لشرف اسرته !

وقضى « لا رونسيير » سحابة يومه تمزقه الحيرة ازاء ما يجب عليه ان يصنعه كى ينجو من المحنة القاسية التى حلت به .. وإذا بفكرة لم يستطع لها دفعا تسيطر على كيانه وتطارد ذهنه فى اصرار ، فقد راح يتساءل عما عسى ان يقوله والده — ذلك البطل ذو الماضى العسكرى المجيد فى عهد

الامبراطورية ــ حين يعلم بأمــر الاتهامات التى لطخت شرف ولده ! .. وإذ ذاك استقر رايه ، درءا للفضيحة ، وحرصـا على شرف أسرته وسمعتها ، ان يكتب الاعتراف المطلوب !.. وما إن بعث بالرسالة إلى « ديستويبى » ، حتى قرر ان يبتعد عن المدينة بعض الوقت ، فالتمس من رؤسائه منحه إجازة ، وإذ بادروا باجابته إلى طلبـه ، أسرع بمغادرة (ســومور) قاصدا إلى (باريس) !

على ان رحيل « دى لا رونسيير » ما كان ليضـع حـدا للمأساة .. إذ لم تلبث الرسائل المجهولة ان راحت تنهـال مرة اخرى على منزل الجنرال ، متضمنة تفاصـيل دقيقـة عن حياة اسرة « موريل » الخاصة ، معلنة ان « مارى » قد سلب شرفها ، وانها باتت ملطخة بالعار !

ولم يحاول الجنرال ان يحقق الأمر هذه المـرة ، فقـد تغلب الغضب فى نفسه على الخوف من الفضـيحة ، فاذا به يقدم بلاغا ضد « لا رونسيير » ، متهما اياه بالشروع فى قتـل ابنته ! . . وسرعان ما القى القبض على الشاب ــ الذى كان يقيم لدى احد اعمامه فى (باريس) ــ ثم أودع السجن ، دون ان يسمح له باى اتصال بالخارج !

المتهم البرىء !

وواقع الأمر ، ان « لا رونسيير » لم تكن له يد مطلقا فى الأفعال التى اتهم باقترافها .. اما المذنب الحقيقى فقد كان « مارى دى موريل » ذاتها ، او ــ كما قال فيما بعـد احـد

الأطباء الذين درسوا حالتها ــ « تلك الفتاة الهستيرية التى تسببت فى ادانة احد الأبرياء ! »

ذلك أن « مارى » ــ وهى فتـاة رومانتيكية النـزعة ، مشبوبة العواطف ــ كانت قد تدلهت فى حب الضابط الشاب منذ لقائهما الأول ، فحاولت على الفور ان تدفعه إلى حبهـا أو ــ فى القليل ــ إلى اشتهائها . ولكنها سرعان ما اصطدمت بفتوره نحوها وعدم اكتراثه بها ، فى الوقت الذى لحظت فيه شدة اهتمامه بأمها ، بالإضـافة إلى ان الفتـاة كانت تعلم ايضا انه يعيش مع عشيقة له فى (سومور) نفسها . وإذ ذاك استحال حبها إلى نوع من الحفيظـة ، ثم إلى حقـد دفين لا هوادة فيه ! .. فاقسمت أن تنتقم لنفسـها ، نظـرا لما تعرضت له من ازدراء مهين من جانب الحبيب الغافل .. فلما عثرت على التقرير المبعوث منه إلى والدها الجنرال ، شرعت فى استخدامه لتقليد خط صـاحبه ، وطفقت توالى ارسـال الخطابات الزاخـرة بالاهـانات إلى والديهـا تارة ، وإلى « ديستويبى » الذى راح يلاحقها بغرامة تارة اخرى ، وإليها هى نفسها تارة ثالثة ! .. وكانت هى التى تتـولى ايـداع الرسائل الموجهة إلى اسرتها فى اماكن مختلفة بالمنـزل ! .. اما فيما يتعلق بالاعتداء المزعوم الذى وقع عليها ليلا ، فقـد اختلقته من اساسه ــ كما انها رتبت مشاهده « واخرجتها » بنفسها على نحو لم يثر شـكوك احد ! ــ فكان ان اتهـم « لا رونسيير » بالشروع فى قتل الفتاة « البريئـة » ، والقى فى غياهب السجون ، تمهيدا لمحاكمته !

« كان أهون على أن تقطع يدى ! »

وحين نظرت القضية أمام محــكمة جنايات (السين) ، كانت ثمة موجة سخط عاتية ضد المتهم ، وشعور عام بالعطف والاشفاق على « المجنى عليها » التعسة ! .. ولم يكن أهالى (سومور) هم وحدهم الملمون بوقائع القضــية ، وإنما كان يلم بها أيضا حى (سان جرمان) الباريسى الأنيق الذى كانت « مدام دى موريل » تغشى مجتمعاته .. ومن ثم فقــد كانت القضية « باريسية » بالمعنى الصحيح ، شهدها جمهــور من علية القوم راح يتابع تطوراتها ، ويترقب نتائجها ، فى لهفــة واهتمام ظاهرين ! .. وكان يرأس المحكمة مستشـــار يدعى « مسيو فيرى » ، اشتهر بنزاهته الفائقة فيما يصــدره من أحكام ، بيد أنه فى تلك القضية بالذات أبدى عجزه عن مقاومة التيار الجارف المناهض لـ « لارونسيير » ، حتى لقد صرح غداة اصداره الحكم فى القضية بقوله : « كان أهون على أن تقطع يدى من أن أوقع هذا الحكم ! »

وقد بدأت المحكمة باحضار « لارونسيير » إلى قاعــة المحكمة ، وبعــد تلاوة قرار الاتهــام ، شرعت المحــكمة فى استجوابه .. وإذ شعر المتهم بأنه بات فى حل من كشف أمر الاقرار الذى وقعــه على نفســه تحت ضــغط الضــابط «ديستويى» ، فاجأ المحكمة بإنكار ما جاء فى اعترافه ، وراح يسوق تفاصيل دقيقة دامغة عن الكيفية التى أمضى بها وقتــه فى ليلة الحادث ، نافيا عن نفسه نفيا قاطعا كل ما وجه إليــه من تهم . ولما سئل عما إذا كان هو صاحب الرسائل المجهولة، أبدى ملاحظة لم تخل من منطق سليم ، إذ أجاب قائلا :

ــ لو أننى أردت حقا كتابة مثل هذه الرســائل ، لما كنت من الغباء والغفلة بحيث أوقعها بالأحرف الأولى من اسمى!

واستدعى الشهود للادلاء بأقوالهم ، فتقــدم مهنــدس استعانت به المحكمة ، مؤكدا أنه حتى لاعب الســيرك ما كان ليستطيع لو تسلق واجهة المنزل أن يبلغ غــرفة الفتاة التى تقع فى الطابق الثانى ! .. ولما نودى على عامل الزجاج الذى قام باصلاح اللوح الزجاجى المهشم ، قرر أن اللوح قد هشم من داخل الحجرة وليس من خارجهــا ، وأن الفجــوة كانت ضيقة للغاية بحيث لا تسمح مطلقا بمرور يد رجــل تســعى لتحريك مقبض النافذة ! .. ثم جاءت شهادة خبراء الخط ، وكانوا أربعة ، فأجمعوا على أن الرسائل المجهولة لم تكتب بخط الضابط الشــاب ، وإنما بخط « الآنســة دى موريل » ذاتها ، وأن الفتاة قد استخدمت فيها ورق خطاباتها الخاص!

وكانت أقوال الشهود وحدها قمينة بأن تؤدى إلى انهيار الاتهام ، ولكن كيف الســبيل إلى اقناع رأى عام ــ متحيــز فى حكمه ــ بأن مثل تلك المكائد يمكن أن تصــدر عن « ملاك طاهر » ، وأن هذا الملاك لم يكن ليتورع عن استخدام أقذع العبارات ، وأشدها بذاءة !! ومن ثم لم يؤمن الحــاضرون فى المحكمة بما ورد فى أقوال الشهود ، بل إنهم لم يكادوا يلتفتون إلى شاهد جاء ليقــرر أن المتهم ذهب ليلة الحــادث لمشاهدة احدى المسرحيات ، وأن الوقت ما كان ليتسع أمامه لتغيــير ثيابه للشروع فى تسلق منزل دى موريل !

« الضحية » .. تتكلم !

وبعد ان ادلى الشهود بأقوالهم ، قــررت المحــكمة رفع الجلسة ، على ان تعقد مرة اخرى فى منتصف الليل ، لسماع اقوال .. المجنى عليها !

وفى الموعد المقرر ، وعلى الضــوء المرتعش المنبعث من المصابيح ، ووسط فضــول الحاضرين المتطلعين ، تقــدمت « مارى دى موريل » للادلاء بأقوالها .. وكانت ثمة وصــيفة تمسك بذراعها حتى لا تسقط على الأرض ، اما هى فــكانت تسير ــ مع ذلك ــ بخطوات وئيدة ثابتة ، وراحت تجــول بانظارها بين الحاضرين ،وقد افعمت نفسها بشعور بالارتياح والرضا ، لاحساسها بأنها موضع اشفاق الجميع واعجابهم ! .. وسرعان ما احضروا لها مقعــدا ، فجلست عليــه ــ فى رشــاقة فتاة « الصالونات » وجلالها ! ــ وما إن ســالها رئيس المحكمة ان تصف ما وقع لها فى حجرتها ليلة الحادث ، حتى انطلقت تكرر ــ بالحرف الواحد ــ ما ســبق ان روته لوصيفتها ، ثم لوالديها ، فلم تتلعثم فى اقوالها ، بل لعلهــا استشعرت نوعا من « الغرور » إذ الفت نفسها تقوم بذلك الدور « البطولى » !

ولم يحاول رئيس المحكمة ــ بــدافع الحيــاء ! ــ ان يناقشها فى التفاصيل الدقيقة التى تضمنتها وقائع القضــية ، فما لبث ان أمر « لارونسيير » بالنهوض من مقعده ، ثم سأل الفتاة :

ــ هل المتهم هو الرجل الذى اقتحم غرفتك من النافذة ؟

ــ اجل ، انه هو !

وشحب وجه « لارونسيير » وهتف محتجا ، وقد ارتعدت فرائصــة : « اقســم أمــام الله والنــاس أن كل ذلك زيف وبهتان ! »

وفى اليوم التالى ترافع ممثل الاتهام ، فطفق يكيل للمتهــم اعنف التهم ، متجاهلا ما ســاقه الشــهود من ادلة تبرىء ساحته ! .. ثم اعطيت الكلمة لمحامى الدفاع ، فراح يفنــد ادلة الاتهام ويدحضها ، الواحــد تلو الآخر ، ثم ختم مرافعته مطالبا ببراءة موكله . ولكن جهوده ذهبت كلها سدى . إذ كان المحلفون قد كونوا حكمهم بالفعل قبل المحاكمة ، مقتنعين بأن ابنة « الجنرال دى موريل » لا يمــكن أن تكون فتــاة عليلة النفس ، مصابة بالهستيريا !!

الحكم !

وخلا المحلفون إلى انفسهم لاصدار حكمهم فى القضية .. وبعد مداولة دامت ست ساعات ، عادوا إلى قاعة المحــكمة حاملين قرارهم ، وتلا رئيس المحكمة الحكم ، فاذا به يتضمن ادانة المتهم بالسجن عشر سنوات ، « لشروعه فى اغتصــاب فتاة ، واصابتها بجروح ، مع التعمد وسبق الاصرار .. »

وقد قدر للارونسيير أن يقضى فى السجن مــدة عقــوبته باكملها . فلما انقضت على خروجه منه اربعة اعوام ، وكانت نظرة الراى العام المتحيزة ضده قد خفت حدتها ، رأى المتهم

« البرىء » أن يتقدم بطلب لمحكمة النقض لاعادة النظر فى قضيته . وما لبثت المحكمة أن انعقدت ونظرت القضية ، ثم اصدرت حكمها بنقض الحكم السابق ، ورد الاعتبار إلى لارونسيير !

على أن المسكين لم يفكر ، بعد أن رد إليه اعتباره ، فى العودة إلى الجيش ، وسرعان ما قررت الحكومة الفرنسية – على سبيل التكفير والتعويض – ان تعينه مفتشا عاما فى (الجزائر) .. وان هى الا سنوات قلائل حتى عينته قائدا عاما فى جزيرة (تاهيتى) .. وفى تلك الجزيرة النائية ، ذات الجو الساحر المعبق بأريج الأزهار ، قضى « لارونسيير » نحبه فى عام ١٨٧٤ (عن نحو ٦٥ عاما) ، بعد أن انعمت عليه بلاده بنوط « جوقة الشرف » !



امراة مجرمة .. وامراة سانجة !

تتجه المراة المجرمة ــ عادة ــ إلى بنات جنسها لتمارس نشاطها الإجرامى عليهن .. فهى اقدر على تفهم المشاعر التى تعتمل فى نفوسهن ، والرغبــات او النزوات التى تساورهن ، والتى يمكن استغلالها للايقاع بهن ! .. والتاريخ حافل بقصص مئات من المجرمات ، اللواتى كن يخترن ضحاياهن دائما من بين النســاء ، فكن ينجحن ــ فى معظم الأحيان ــ فى تحقيق اغراضهن الإجرامية .

والقصة التى اقدمها لك فيما يلى ، تروى سيرة أجرا محتالة عرفتها محاكم انجلترا حتى اليوم .. محتالة هدتها غريزتها الأنثوية إلى وضع خطة محكمة لاستغلال تلهف المراة على الاحتفاظ بجمالها وشبابها ، ولو باعت نفسها فى سبيل ذلك !.. وهى بعد قصة كل امراة سانجة ، بلهاء ، لا تعترف بقانون الأيام ، ولا تعرف كيف تحنى راسها فى الوقت المناسب ، فاذا الثمن الذى تدفعه فى النهاية ثمن فادح اليم !

دكان صغير انيق ، كان المــارة بشارع (بوند) فى لندن يقفون امامه لحظات فى سنة ١٨٦٠ ، يتأملون لونه الأحمــر القانى ويتساءلون عن معنى اللافتة الفــريدة التى وضــعت عليه ، وقد كتب عليها بماء الذهب : « جمال إلى الأبد » ..

فأما الرجال فقد كانوا يستنكرون هذا المحل الذى كان لا يقدم للناس بضاعة معروفة كغيره من الدكاكين .. وأما النساء ، فكانت اللافتة تحرك الوتر الخالــد فى قلب كل امراة .. وتر الجمال .. الجمــال إلى الأبد ! فكانت الواحــدة منهن إذا استطاعت أن تقاوم رغبتها الغريزية فى الدخول مرة لم تلبث ان تغلب على امرها فى المرة التالية !

فاذا دخلت ، وجدت نفسها فى صالون لطيف مهيأ على نحو يدل على ذوق ولكنه لا يبعث على الاطمئنان .. فهذه مقاعد وثيرة ، وتلك منضدة انيقة وردية اللون صفت عليها زجاجات واشياء صغيرة فى ورق ملون ينبعث منها عطر بديع .. وخلف المنضدة سيدة ذات شعر غزير أسود وعينين ذات اهــداب طويلة عليها اثر الصنعة المبالغ فيها ، ووجنات وردية يدن لونها الزاهى على انه من عمل يديها لا من ابداع الخالق ! .. وهى تتكلم فى نعومة ورقة ، وتتحرك وكأنها ترقص ، وتنظر إلى «العميلات» بعينين فيهما جراة وسيطرة ، فلا يستطيع الافلات من اغرائها الا الماهرات ..

وتسرع هذه السيدة التى تخطت الخامسة والأربعين إلى « العميلة » وتحييها فى رقة ، ثم تقدم لها قائمة الأصناف التى تستطيع تقديمها ، و « الخدمات الجمالية » التى تستطيع ان تؤديها !

وتقرأ « العميلة » فى القائمة أصنافا غريبة ، وعناوين جذابة ، كل منها كاف لاغراء جيل من النساء : فهناك « مياه الحجر المغناطيسى الصحراوى » ، الذى يزيل تجاعيد الوجه

ويحفظ على البشرة صباحة الشباب وينشط القوة الحيوية ويعيد الشعر إلى لونه الأصلى .. وهناك « مياه الأردن » السحرية ذات الرائحة الجذابة .. و « تواليت فينوس » نوع من الصابون العطرى .. وهناك « مسحوق الفتنة » لون من البودرة ناعم كالحرير .. و « ورد الهند » لون من الأصباغ الحمراء للوجنات والشفاه !

أما الخدمات الجمالية فكثيرة معقدة ، ولكنها « أكيدة المفعول » .. فى مقدمتها « حمام الصحراء » ، وهو حمام فريد تغتسل فيه طالبة الجمال بضع مرات ، فى مياه تتسرب فى مسام الجسم وتحارب الشيخوخة فى جذورها .. و «الحمام التركى» المعروف الذى يعيد الشباب إذا دخله الإنسان كذا من المرات .. و « صالون العرائس » ، تقضى فيه السيدة عددا من الساعات كل أسبوع ، وصاحبة المحل تدلكها بالزيوت والمعاجين ، وهى زيوت ومعاجين اخذت أسرارها من حريم السلطان !

وبعد ان تلقى صاحبة المحل هذا الخطاب الطويل تنظر إلى عميلتها وهى لا تشك فى انها ستشترى شيئا ، مهما يكن الثمن .. وكانت الأثمان باهظة جدا : فزجاجة « ماء الحجر المغناطيسى » ثمنها عشرة جنيهات .. أما « ماء الأردن » فزجاجته بخمسة .. وعلاج الجمال عن طريق حمامات الصحراء يتكلف من خمسين إلى خمسمائة جنيه .. أما « صالون العرائس » فلا تقل تكاليفه عن الف جنيه !

فاذا كانت العميلة من السيدات ، اكتفت من زاد الجمال بشىء تدفع فيه بضعة جنيهات ثم تخرج إلى غير عودة ، وإذا كانت من الضعيفات اللاتى غلب عليهن حب الجمال والشباب، وقعت فى حبائل صاحبة المحل ، فلا تزال تستنزف أموالها حتى تأخذ آخر بنس معها .

وكانت هذه السيدة تعرف تكيف تستخرج هذا البنس الأخير مهما تكن العميلة عنيدة .. إنها تعرف كيف تنصب عليها وتهددها بالفضيحة وبالمقاضاة والتشهير .. فهى امرأة شريرة خطرة ، تاريخها الماضى مظلم أسود .. دخلت السجن اكثر من مرة ، وطاردها البوليس من لندن إلى برايتن إلى باريس، وافلست بدل المرة مرات .. ولكن حيويتها كانت أقوى من الزمن ، فكانت تعود إلى الوقوف على قدميها من جديد !

تلك هى « مدام ساره راشيل ليفرسون » .. امرأة رهيبة لا ضمير لها ولا خلق ، تزوجت أكثر من مرة ، واشتهرت فى لندن بالاحتيال وسوء الخلق ، ولكنها عاشت لأن غريزة حب الجمال والتمسك بالشباب تعمى عيون بنات حواء ، فتوقع التعيسات منهن فى أيدى الشيطان باسمات !

* * *

فى ذات يوم من أيام سنة ١٨٦٧ ، دخلت محل « مدام راشيل » سيدة بين الخامسة والأربعين والخمسين .. ارملة طروب لا تمتاز بذكاء او بعد نظر ، ملامحها تدل على انها كانت

فى صباها ذات جمال باهر ، توفى عنها زوجها ، وكان ضابطا كبيرا فى الهند ، وخلف لها املاكا فى ناحية « ستريت هام » تدر عليها دخلا طيبا .. وكانت ــ كالكثيرات من الجميلات ــ مدللة ، تصر على ان يعاملها الناس كفتاة جميلة فى ميعة الصبا .. فثقلت على اهلها واختلفت معهم ، ولم تلبث ان انفصلت عنهم وسكنت بمفردها فى بيت صغير .. وكانت معروفة بالغباء والسذاجة فى بعض اوساط لندن ، فكنت إذا ذكرت « مسز بوروديل » ابتسمت الشفاه فى سخرية !

تبينت « مدام راشيل » منذ اللحظة الأولى انها وقعت على صيد طيب ، ولم تشك لحظة فى أنها ستستخلص من « مسز بوروديل » كل ما عندها .. حتى جواهرها !

بدأت « مدام راشيل » فاستنزفت من « مسز بوروديل » كل ما كان لديها من النقود ، واعطتها مقابل ذلك عشرات الزجاجات من المياه المغناطيسية ومياه الاردن ، وعشرات من قطع صابون فينوس ، واجرت عليها تجارب الحمامات والصالونات كلها .. وحينما نفدت النقود بدات تبيع الجواهر حتى اتت عليها !

فاذا فرغت « مدام راشيل » من ذلك اخذت تمهد للجزء التالى من برنامجها ، وهو اغراء « مسز موروديل » على بيع املاكها لتتمكن هى من امتصاص الثمن .. ولجأت فى ذلك إلى حيلة غريبة فى بابها انخدعت بها « مسز بوروديل » ، وسارت وراء الساحرة الشريرة وكانها عمياء لا تفكر .. قالت لها يوما :

— مسز بوروديل .. انت امراة سعيدة الحظ .. إن جمالك فريد !

فابتسمت الساذجة واقتربت من « مدام راشيل » وقالت :

— حقا ؟ ماذا تعنين ؟

— أعنى انك أوقعت فى غرامك أعظم معارف واغناهم واجملهم !

— من هو ؟ وكيف ؟

— أحب ان احتفظ باسمه مؤقتا ..

— مدام راشيل .. أنت صديقتى الوحيدة الوفية .. قولى لى بربك .. من هو هذا العاشق ؟

— انت شيطانة لحوح .. تعديننى بان تحتفظى السر ؟

— بشرفى ..

— إذن .. فهو اللورد رانلاج صاحب المقاطعات الواسعة .. فصرخت الأرملة الشقية قائلة :

— لورد رانلاج الفاتن .. ذو الشوارب السوداء الجميلة والصديريات الحريرية الحمراء البراقة .. يا إلهى ! .. كيف حدث ذلك ؟

— صبرا .. صبرا ايتها الجميلة الرعناء .. إن اللورد يتردد على هنا خفية .. يدخل من الباب الخلفى فى صالون خاص له .. إنه يعالج جماله عندى .. وانت تعرفين ان مركزه لا يسمح له بان يعلن ذلك صراحة ! ولهذا ارجوك الا تفوهى لأحد بكلمة عن ذلك .. لقد رآك مرارا من فرجة

الباب وانت جالسة فى « صالون العرائس » ، ولا تتصورين
مقدار حبه لك .. يا للرجال !

وهبطت هذه الكلمات على قلب الأرملة هبوط قطرات المطر
على الرمال الظامئة .. فجلست وجعلت تنظر إلى « المدام »
بعيون تفيض بالشكر والأمل .. واحست الماكرة ان اللحظة
مواتية .. فمضت تقول :

ــ والآن ايتها العروس الفاتنة ، ينبغى أن تاخذى للأمر
اهبته .. إن اللورد رجل غنى ، وقد قلت له إنك اغنى منه ..

ــ يا إلهى ! وكيف العمل ؟ أنت تعرفين أن نقودى قد
نفدت ..

ــ اسمعى يا عزيزتى .. انت امراة جميلة .. وككل
الجميلات لا تعرفين السياسة والشطارة .. فى يدك الآن
فرصة من ذهب ، ولا بد من كسبها .. لقد علمتنى الحياة ان
الإنسان ينبغى ان يقامر فى بعض الأحيان ليضمن الكسب ..

ــ ماذا تعنين ؟

ــ لم تفهمينى بعد .. اقصد .. ماذا ستصنعين باملاكك
فى « ستريت هام » ؟ .. لماذا لا تبيعين منها شيئا لتشترى
عربة بزوجين من الخيل ، ومصاغا جديدا ، وملابس باهرة ..
ولكى تستمرى على علاج الجمال .. ثم لكى تظهرى أمام
عاشقك بالمظهر اللائق ؟ ! لا تنسى ان عشرات الجميلات فى

أوربا كلها مستعدات للتضحية بكل شىء فى سبيل الحصول
على اجمل اللوردات واعظمهم أرستقراطية !

ولم تكن « مدام راشيل » فى حاجة إلى اقناع طويل ..
فقد عرفت كيف تكبل المسكينة بقيود من ذهب .. ولم تخرج
« مسز بوروديل » من محل « جمال إلى الأبد » الا بعد ان
اتفقت مع « مدام راشيل » على طريقة البدء فى البيع ..
وتبرعت الماكرة فعرضت على مسز بوروديل خدمات محاميها
الخاص .. لوجه الله !

* * *

واخذت « مسز بوردويل » تبيع أملاكها قطعة قطعة .
وتضع النقود فى يد « مدام راشيل » لتشترى لها ما ينبغى ..
فكانت المحتالة تشترى الشىء بجنيه وتزعم أن ثمنه عشرة ..
واخذت لنفسها الف جنيه كاملة اجرا لعلاج جمالى كامل جديد!

ثم بدات بعد ذلك سلسلة من اعمال الاحتيال قد تكون
وحيدة فى التاريخ .. وانه لمن الغريب ان السذاجة بلغت
بمسز بوروديل إلى هذا الحد الذى لا مثيل له حتى بين
الأطفال ..

فمن ذلك ان « مدام راشيل » اكدت لفريستها ان اللورد
يستحسن الا يقابل معشوقته الآن ، لانه يخشى ان يفتضح
الأمر وتثور عليه أسرته ، ولهذا فلا مفر من ان تقتصر العلاقات
على المكاتبة ، عن طريق مدام راشيل .. فكانت « مسز
بوروديل » تكتب خطابات تفيض شوقا ورقة ، وتتلقى من يد

« مدام راشيل » ردودا عليها ملتهبة بالعاطفة حقا .. خطابات كتبت فى محل «المدام» .. ولما كانت هذه الأخيرة امية لا تكتب اسمها فقد كانت تلجأ إلى أى إنسان لتملى عليه ردود اللورد المزعومة !

وحدث عندما دبرت « مدام راشيل » امر اول خطاب من اللورد إلى معشوقته أن بحثت عن إنسان يكتب لها ، فلم تجد الا صبى نجار ، فكتب الخطــاب بخط ردىء مضطرب .. وحينما فرغ من الاملاء نسى ووقعه باسمه « وليام » .. ولم تلاحظ مدام راشيل ذلك ! .. فلما تسلمت « مسز بورروديل » الخطاب تعجبت من ان يكتب اللورد هــذا الخط الردىء .. فزعمت لها المدام ان اللورد كتبه فى ساعة متأخرة من مساء امس بعد ان اسرف فى الشراب فاضطربت يده .. وصدقت مسز بورروديل .. ولكنها عادت تقول :

ــ ولكن .. يا عزيزتى راشــيل .. كيف يوقع باســمه وليام مع أن اسمه توماس ؟!

لم تختلج عين المحتــالة القــادرة .. وربتت على كتف ضحيتها ، وقالت :

ــ يا عزيزتى الساذجة ، صحيح ان اسمه توماس ، ولكن « وليــام » هو اسمه فى البيت .. واسمه عنــد اصــدقائه المقربين .. الست تعرفين انه من سلالة « وليام الفاتح » ؟ .. انه شديد التمسك باسم « وليام » !

واقتنعت العاشقة الواهمة .. وخطت مدام راشــيل

خطوة اخرى ، فأفهمت « مسز بورروديل » انه من الضرورى ان ترسل إلى اللورد بضع هدايا تدل على غناها وحبهــا .. واطاعت المسكينة .. ومضت تذهب مع المحتالة إلى محال الهدايا والجواهر وملابس الرجال ، وتشترى اغلى الأشياء ، وتسلمها لمدام راشيل لارسالها للورد ، فتعود بهــا هذه إلى المحل فى ثانى يوم وتعيدها ، وتأخذ النقود وتمضى !

واخذت املاك مسز بورديل تتسرب فى سرعة .. باعت اراضيها ، وبيوتها ، ثم تحف بيتها ــ حتى الأطبــاق والآنية والأثاث ــ دون أن تلتقى بالحبيب المجهول مرة واحدة !

ونفدت اموال « مسز بورروديل » عن آخرها .. ولم يبق لها الا معاشها ، فطمعت فيه المحتالة الجبارة ! .. وجعلتها توقع على كمبيالات ضخمة ، ثم رفعت ضدها قضية وكسبتها .. وكان القانون الانجليزى إذ ذاك يقضى بحبس المدين المفلس حتى يسدد دينه .. وهكذا دخلت « مسز بورروديل » سجن « هوايت كروس » للنساء الذى سجنت فيه « مدام راشيل » اكثر من مرة .. وحينما طال بهــا السجن عرضت عليهــا المحتالة ان تتنازل لها عن دينها إذا هى تنازلت لها عن معاشها .. وهكذا خرجت « المسز بورروديل » من السجن تعيســة شقية مفلسة ، لا تجد سقفا يأويها ، او لقمة تتبلغ بها !

* * *

وكان من حســن حظ « مسز بورروديل » ، ان تعرفت فى السجن إلى سيدة مسكينة سيئة الحظ اســمها « مســز

ساتون » اصغت إلى قصتها فملكها الذهول ، فقررت أن تقف إلى جانبها ..

وذهبت المرأتان إلى محل « مدام راشيل » .. فبلغ من جراة هذه المحتالة أن أنكرت أية معرفة بسيدة تسمى « مسز بورودیل » .. بل أنكرت أنها رأتها مرة واحدة فى حياتها !

وصاحت مسز بورودیل :

— مدام راشيل .. أنت لا تعرفيننى ؟ كيف ؟ اذن .. فدعينى اتصل باللورد رانلاج !

فضحكت المدام فى سخرية بالغة وقالت :

— لورد رانلاج ؟ أيتها العربيدة المستهترة .. كيف تجرئين على أن تذكرى اسم هذا النبيل على لسانك ؟ !

— وهذه الخطابات ؟ !

— اية خطابات أيتها التعيسة السكيرة ؟ ! .. تعنين خطابات عشيقك وليام .. ذلك النصاب الذى كنت تتحرقين شوقا إلى رؤيته ؟! ابحثى عنه .. اننى لا اعرف هذا اللون من الرجال !

وصعقت « مسز بورودیل » ، وسقطت على الأرض مغشيا عليها .. فحملتها « مدام ساتون » إلى بيتها . وحينما افاقت تبينت الهاوية التى سقطت فيها ، فأسرعت إلى أسرتها وقصت عليهم الأسطورة الرهيبة ..

وثار احد أقارب « مسز بورودیل » — واسمه « الفريد كوب » — واسرع إلى محاميه .. ووكله فى مقاضاة المحتالة .. وبعد أسابيع اتجهت انظار لندن كلها نحو محكمة جنايات « أولد بيلى » لتسمع تفاصيل اغرب قصة احتيال عرفها القضاء الانجليزى !

واسرعت عشرات من ضحايا النصابة ليشهدن المحاكمة .. ومن الغريب ان معظمهن لم يجرؤ على الشهادة ضدها خوفا من الفضيحة ! وسمع القضاة التفاصيل فى ذهول ، ثم حكموا بسجن « مدام راشيل » خمس سنوات مع الأشغال الشاقة !

وانزوت « مسز بورودیل » فى بيت ابنتها بعد أن استعادت معاشها ، وعاشت بقية حياتها فى شقاء وخيبة أمل !

اما « مدام راشيل » فقد خرجت من السجن متجددة النشاط .. وعادت ففتحت محلها فى شارع بوند ! ومن الغريب أنها رغم ذلك كسبت عملاء جددا ، وعاشت فى رخاء !

بل أغرب من ذلك انها لم تقلع عن الاحتيال ، فاحتالت على الكثيرات ، ودخلت السجن مرارا .. وماتت بين أيدى السجانات !



الجمال القاتل

في قفص الاتهام !

مأساة إنسانية نظرت أمام المحاكم الفرنسية

عزيزى القارىء ...

المحاكمة التى أقدمها لك فى الصفحات التالية ترمز لمشكلة خطيرة ((مزمنة)) متغلغلة فى المجتمع الإنسانى ، فى كل بلد ، وكل عصر .. !

إنها مشــكلة ((الرجل الذى له ماض)) ، حين يبرز له ماضيه ، ليقاضيه !

.. مشكلة الأعزب الذى تغلبه نشوته ، وشهوته فيتخذ لنفسه بدل الحليلة خليلة .. حتى إذا ما زهــد فى الكأس المحرمة آخر الأمر ، وفكر فى الــزواج .. واجهته مشكلة التخلص من خليلته ، التى قــد تكون حريصة من ناحيتها على التشبث به ، حرصا يدفعهــا إلى محاولة عرقلة زواجه : بالحسنى أو بالتهــديد .. التهديد بقتله هو ، او بانتحارها هى ! .. أو التهــديد بالدس بينه وبين خطيبته — قبل ان يتزوجهــا — كى تتخلى عنه !.. أو الوقيعة بينه وبين زوجته — إذا أفلح فى الزواج منها — كى تنفر منه أو تطلقه .. !

أو قد تكون الخليلة حريصة ، لا على شــخص خليلها ، بل على جيبه ! .. فتكون غايتها من تهديدها ووعيدها ، لا عرقلة زواجه وانما ابتزاز امواله .. !

وكم من رجل حالت خليلته فعلا بينه وبين الزواج: إما من فتاة بعينهــا ، أو من كل فتــاة .. عن طريق اطلاعها على ماضيه أو حاضره مع الواشية ! ..

وكم من فتاة خطبها رجل ، بدأ لها مكتمل الصفات والمؤهلات ، فلم تكد خطبتهما تعلن حتى لاحقتهــا من حيث لا تعلم خطابات تفشى صلته المحرمة بامرأة بعينها .. الأمر الــذى قد تتراجــع الفتاة امامه عن اتمــام زواجها ، ولو اعجبها خطيبها ، اشفاقا على مستقبلها من ماضيه ! .. أو قد تحزم الفتاة شجاعتها برغم ذلك فتقدم على هذا الزواج ، مقامرة بمصيرها ، وراحتها ، ووفاء زوجها لها فى المستقبل .. واضعة ذلك كله فى كفة ميزان ، وزوجها المرموق فى الكفة الأخرى !

ولكن لماذا ننظر إلى الموضوع من زاوية واحدة ؟ .. ولم لا نقول : كم من امرأة جنت عليها صلتها برجل، غرر بها .. حتى إذا ما شرع فى الزواج من غــيرها ، بعــد أن فوت عليهــا فرصــة الــزواج من غــيره .. احســت الضــحية أن العــدالة تقتضــيها الاقتصاص من الجانى عليها ، بأن تفوت عليه الفرصة التى فوتها هو عليها !؟

هذه الخواطر ، وغيرها ، هى بعض ما توحى به إلى الذهن : القضية الجنائية التى اعرضها عليك فيما يلى :

ملكة الجمال .. فى القفص !

نحن فى قاعة محكمة جنايات « السين » بباريس ، فى السادس والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٣١ .. المحكمة تعج كخلية النحل ، بجمهور النظارة الذين تقاطروا من جميع انحاء العاصمة الفرنسية ليشهدوا محاكمة ملكة الجمال الباريسية الحسناء « جورجيت هودو » قاتلة الجواهرجى « ايزاك ايشسكى » !

الأنظار كلها مصوبة نحو المتهمة ، وقد وقفت فى قفص الاتهام ، بقوامها الفارع الجميل ، ووجهها الصارم المتحفز لبدء النضال .. النضال الذى سوف يقرر مصيرها ،وحريتها، بل حياتها كلها ! لشد ما ذبل هذا الوجه وحفر عليه القلق أخاديد عميقة خلال الشهور التسعة التى انقضت منذ وقوع الجريمة ، حتى لصار اقرب إلى وجه « بيللون » آلهة الحرب عند الرومان ، منه إلى وجه « فينوس » ربة الجمال !

وإن جسد المتهمة ليختلج كله من وطأة الانفعال العنيف الذى يهز قلبها واعصابها وهى فى موقفها ذاك ، زائغة العينين، تعصر منديلها بين يديها المغلفتين بقفازيها، فى عصبية ظاهرة ، وقد بدت خائرة القوى .. وكلما وجه اليها الرئيس « دفيز » ـ رئيس المحكمة ـ سؤالا وهو يستجوبها ، لم تخرج من شفتيها غير كلمات متقطعة اشبه بالفحيح منها بالصوت الادمى !

عارضة الأزياء العاشقة ..

وقبل ان نتابع ما جرى أثناء المحاكمة ، نعود بك قليلا إلى الوراء ..

تبدأ القصة يوم مولد المتهمة « جورجيت هودو » حين نثرت فينوس كنانتها فوقع اختيارها على الطفلة جورجيت كى تسبغ عليها سحرها .. فارسلت إليها « جنية » طيبة انحنت على مهد الصغيرة فمنحتها تاج الجمال النورانى ! .. ورغم أن جورجيت شبت فى أسرة رقيقة الحال ، فى كنف أب يشتغل شرطيا ، وأم تعمل عاملة فى « كانتين » مدرسة من مدارس العامة .. فان الحظ لم يلبث ان ابتسم لها ، ووعدها القدر بمستقبل ضاحك ، حين انتخبت وتوجت ملكة للجمال فى احدى مباريات الجمال الباريسية الكبرى .. وعلى اثر ذلك عرض عليها بيت من بيوت الحياكة « بالشانزليزيه » أن تعمل فيه عارضة للأزياء !

وكانت تلك بداية المأساة ، أو بداية النعمة التى انقلبت نقمة !

يد القدر .. !

فقد دخل الجواهرجى الكبير « ايزاك ايشسكى » ذات يوم معرض الأزياء الذى تعمل فيه « جورجيت » الحسناء .. وكانت النظرة الأولى منها كافية أن توقع الرجل فى هواها ! .. وأذعن الذهب لسلطان الجمال وسطوته .. ثم أذعن

الجمال بدوره لسلطان الذهب وبريقه .. فصارت « المانكان » الفاتنة خليلة لتاجر الماس والياقوت .. !

ثم انقضت السكرة ، وجاءت الصحوة .. حين فكر الرجل فى ان يتزوج ، ويكون بيتا واسرة .. فوقع اختياره على فتاة تدعى « ايفا ليفى » كى تشاركه حياته !

وخطبها — فى فبراير سنة ١٩٢٨ — ثم تزوجها .. ولكن، منذ ذلك التاريخ عاش الزوجان حياة حافلة باسباب القلق والانزعاج ، تطاردهما فيها كل حين مهاترات العشيقة المهجورة ، ومواقفها الفاضحة ، وعتابها للزوج حينا ، وتهديدها اياه احيانا ! .. وهكذا لم تدخر « جورجيت » وسعا ، ولا ترفعت عن سلاح ، فى سبيل الانتقام من عشيقها القديم وقلب نعيم حياته إلى جحيم مقيم .. بل إن عقابها قد تجاوز الرجل إلى خطيبته — ثم زوجته — الضحية البريئة مدموازيل « ايفا ليفى » فلم تترك جورجيت فرصة لافساد سعادة المسكينة وتنغيص عيشها الا اقتنصتها ، وامعنت فى استغلالها ...

وكانت الماكرة قد فرضت على ايشيسكى يوم قطع علاقته بها — كما فرضت على جميع عشاقها الذين سبقوه — « فدية » أو اتاوة قدرتها هى بمبلغ مائتى الف فرنك ، وقدرها هو بعشرين الفا من الفرنكات فقط — اى عشر ما طلبت — دفعها اليها ونفض يده منها إلى غير رجعة !

اللقاء الفاجع !

لكن جورجيت أحبت ايشسكى ، وغارت عليه ، فلم تشأ التفريط فيه كما فرطت فى سواه من عشاقها السابقين .. ثم استمرت تطارده وزوجته وترهق أعصابهما وتفسد حياتهما .. عامين كاملين ! .. لكن حبها وغيرتها بدلا من أن ينطفئا ازدادا اشتعالا .. حتى لم تعد تقوى على كبح جماح الأنثى المتوحشة الرابضة فى أعماقها ! .. فراحت تتربص بعشيقها السابق وترصده .. حتى فاجأته — يوم ٦ يونية سنة ١٩٣٠ — يدخل صيدلية فى شارع لافاييت ، ليبتاع منها دواء .. فاخرجت من حقيبة يدها مسدسها الذى ادخرته لهذه المناسبة .. واطلقت على التعس رصاصتين منه ، اصابتا منه مقتلا .. فخر من فوره فاقد الحياة !

ماضى المتهمة ..!

ووقفت « جورجيت هودو » فى قفص الاتهام بمحكمة « السين » صبيحة ٢٦ مارس سنة ١٩٣١ تجيب على استجواب رئيس المحكمة القاضى « دفيز » :

الرئيس : أن ماضيك يشهد بانك طالما اثرت منازعات مع عشاقك كلما هجرك واحد منهم .. بل إن أحدهم — ذاك الذى عرفته فى لندن — يتهمك بأنك تسببت فى اعتقاله بيد البوليس الإنجليزى !؟

جورجيت : ياله من افتراء !

الرئيس : أو تنكرين انك طالبت ايشسكى بدفع الاتاوة ؟

جورجيت : بل اقسم بكل ما هو مقدس اننى لم اطلب منه مالا .. لكنه أودع عشرين الف فرنك باسمى عند احد الموثقين .

محامى المدعية بالحق المدنى (ارملة القتيل) : وقد قبضت المتهمة هذا المبلغ من الموثق بطريق السهو والغفلة !

الفرنسية الخليعة !

ثم تمضى المحكمة فى استجواب المتهمة ، فتزعم بين ما تزعمه ان القتيل كان يزمع الزواج منها لولا اعتراض اسرته على هذه الزيجة .. « وقد قال لى والده بالحرف الواحد إن ابنه لن يتزوج من فرنسية خليعة ! » .. وهنا يجيبها محامى ارملة القتيل : « لكن ضحيتك تزوج مع ذلك من فرنسية ! » .. فتتراجع المتهمة خطوة إلى الوراء ثم تصوب ذراعها نحو الأرملة الشابة الجالسة إلى جانب محاميها ، وتصيح ساخرة : « فرنسية ؟ انها إسرائيلية .. هل نظرتم اليها من زاوية جانبية ؟ »

وهنا يهب محامى الأرملة صائحا فى تشف : « ان المتهمة قد فضحت بهذا القول غيرتها القاتلة وحقدها على موكلتى ! » .. ويستأنف الرئيس استجواب المتهمة : « إنك قد أرهقت المجنى عليه بطلب المال .. بل وذهبت تتجسسين على خطيبته ، زاعمة لها انك بائعة « ثياب داخلية ! »

المتهمة : لقد ذهبت اخطرها بأن خطيبها يخدعها .. وان له خطيبة اخرى غيرها !

الرئيس : وفى الشهور التالية صار مسلكك مهددا لسلامة الزوجين ، بحيث اضطرا إلى ان يضعا نفسيهما تحت حماية رجال البوليس السرى الخاص !

المتهمة : وانا عشت على اثر ذلك عامين كاملين هدفا لمطاردة ومراقبة مستمرة من اهل الحى جميعا !

.. ومع ذلك فان حماية البوليس السرى الخاص ، ورقابة اهل الحى والأصدقاء ، لم تجد المجنى عليه نفعا سواء فى منع الجريمة يوم وقوعها ، أو منع المشاجرات والمشاهد الصاخبة التى تكررت فى الطرقات والأماكن العامة قبل يوم الحادث !

وحين يواجه رئيس المحكمة المتهمة بانها قد طالبت المجنى عليه بفدية قدرها خمسمائة الف فرنك ، تلوذ جورجيت بالصمت فى البداية .. ثم تتكلم لتؤكد انها ما تزال تحب الرجل الذى قتلته ! .. وانها فى كل مرة كانت تلقاه فيها فى الطريق كانت تتناول يده فى رفق « عاطفى » .. ومع ذلك فانه كان يسلمها فى كل مرة إلى البوليس !

الرئيس : وهل من الرفق العاطفى أن تنشبى اظافرك فى عشيقك القديم ، وتكسرى المظلة على ظهره .. كما هو وارد فى محاضر التحقيق ؟

المتهمة : وماذا تريدنى ان افعل ، وهو لم يجبنى يوما بكلمة لطيفة ؟ انى لست متوحشة ، وإنما هو الذى الجأنى بتصرفاته إلى ما فعلت .. ففى كل مرة كان يكلف البوليس بالقبض على واهانتى بكل وسيلة !

الرئيس : انك قد ادخلت الرعب على قلبه حتى دفعته إلى ان يلقى بنفسه من النافذة ذات يوم ، كى ينجو من المصير المجهول الذى طالما هددته به وتوعدته !

ولم تحر جورجيت جوابا !

المتهم الذى برىء !

ثم اثيرت مناقشة حول ما إذا كان من بين الدوافع التى « شجعت » المتهمة على ارتكاب جريمتها ، ذلك الحكم الذى اصدرته المحكمة قبل تاريخ الجريمة ببضعة ايام ،والذى قضى بتبرئة رجل يدعى « فريدمان » كان قد قتل زوجته !؟

وبعد ان جرى نقاش طويل بين ممثلى الدفاع والاتهام حول هذه الفكرة انبرى محامى المتهمة « مسيو بيرتون » يقول : « ان المحامى الذى تولى الدفاع عن ذلك الزوج القاتل وطلب له البراءة هو مسيو « موروجيافيرى » محامى المدعية بالحق المدنى فى قضية اليوم ، الذى يطالب براس موكلتى ! »

محامى المدعية بالحق المدنى : ان الفارق بين القضيتين كبير (ضحك) .

محامى المتهمة : بلا شك .. بلا شك .. فانت اليوم محامى الأرملة المدعية بالحق المدنى ! (ضحك)

كيف وقعت الجريمة ؟

وانتقلت المحكمة إلى مناقشة كيفية وقوع الجريمة .. فتبين منها ان المتهمة كانت قد اتصلت بالمجنى عليه فى صباح

ذلك اليوم بالتليفون ! .. ترى ماذا دار بينهما فى تلك المحادثة ؟ . ان جورجيت تزعم وتؤكد ان ايشسكى قد قطع المكالمة بكلمة واحدة ، موجزة لكنها حاسمة ! .. وتأبى أن تذكر الكلمة !

الرئيس : وفى المساء ، الم تتربصى له مختبئة وراء بوابة تشرف على طريقه ؟ لقد رآك شهود !

المتهمة : لست أدرى .. كنت مجنونة إذ اقدمت على فعلة كهذه !

الرئيس : الشهود يقررون أن ايشسكى دخل الصيدلية نحو الساعة الخامسة بصحبه شقيق زوجته ، مسيو لوسيان ليفى .

المتهمة : وهل أعلم شيئا من تفصيلات ذلك اليوم المشئوم ؟ وهل اعلم حتى ما إذا كان الحادث قد وقع فى صيدلية أم فى مكان آخر ؟ انى لم اكن مالكة وعيى !

الرئيس : الذى يجمع عليه الشهود انه فيما كان المجنى عليه يدفع ثمن الدواء الذى اشتراه اطلقت عليه انت رصاصتين ، ثم صرخت على الأثر : « يا للفظاعة ! .. يا حبيبى المسكين » .. وبعد ذلك وقفت أمام الجثة تصلحين زينتك وتضعين المساحيق على وجهك !

المتهمة : ربما اكون فعلت ذلك بحركة غير إرادية ، دون وعى .. ولكن منذ تلك الساعة لم أعرف راحة الضمير !

اقوال الشهود ..

ثم بدات المحكمة تسمع الشهود ، فسئل الشاهد الأول « الدكتور بول » عن رأيه فيما تنسبه المتهمة إلى عشيقها القديم ، المجنى عليه ، من انه احدث بها ضررا لا يمكن اصلاحه .. ولم يستطع الشاهد أن يجزم بشىء فى هذا الصدد ..

وصعد إلى المنصة الشاهد الثانى ، مسيو « بين » مأمور البوليس ، فقرر انه ادهشه من المتهمة ساعة القبض عليها برودها وعدم مبالاتها !.. وتثور جورجيت لدى سماعها هذا القول فتتهم مأمور البوليس بانه أراد مراودتها عن نفسها فرفضت ! .. ويصرخ هو بدوره منكرا : « هذا افتراء كاذب ! »

ثم يشهد لوسيان ليفى شقيق ارملة القتيل بانه حضر قبل يوم وقوع الجريمة عدة مشاجرات عنيفة نشبت بين جورجيت والمجنى عليه ..

ويتلوه « إدوارد كاهن » صانع الحلى الماسية فيقرر انه هو الذى كان وسيط التعارف بين المتهمة والمجنى عليه فى البداية . وانه التقى بالمتهمة ذات يوم فى ميدان فندوم ، بعد انقطاع علاقتها بعشيقها المذكور ، فقالت له عنه « انه بخيل قذر ، ولسوف اقتله ! » .. فلما نقل قولها إلى ايشسكى أجابه هذا بأنها تريد منه ان يدفع لها مائتى الف فرنك ! .. وهى « اتاوة » غير معقولة !

وعند هذا الحد من شهادة « كاهن » تقاطعه المتهمة صائحة بحدة : « يا للفظاعة ! .. لقد طالما حسبتك « جنتلمانا » .. وها أنت تختلق هذه الأقوال ! »

ثم يأتى « رابينوفتز » — من أصدقاء القتيل — فيقرر أنه حين توسط لدى المتهمة لتخفض الاتاوة أجابته : « ما دام هو يوسط أصدقاءه فى الأمر فسأرفع المبلغ من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ الف فرنك ! »

القاتلة ، وأم القتيل .. وجها لوجه !

ثم نوديت مدام ايشسكى — والدة القتيل — لكنها لم تكد تبلغ منصة الشهود حتى قررت المحكمة الاستغناء عن سماع شهادتها .. وفى هذه اللحظة نهضت المتهمة فهتفت بها : « اصفحى عنى ! »

وكأنما نكأت هذه الصيحة من القاتلة جرح قلب الأم المكلوم ، فحاولت أن تتكلم ، لكن العبارة انحبست فى حلقها .. وانكفأت على وجهها فاقدة الرشد !

وحملوها إلى الخارج ..

واوقفت الجلسة وسط هرج الحاضرين وصخبهم .. وحين أعيدت بعد فترة الاستراحة سمعت المحكمة مرافعات كل من مسيو « ادزكوفسكى » ومسيو « موروجيا فيرى » ، المحامين عن أسرة القتيل المدعية بالحق المدنى .. ثم مرافعة مسيو « برتون » المحامى عن المتهمة ..

وبعد ان خلت المحكمة للمداولة أصدرت حكمها على ملكة الجمال « جورجيت هودو » بالسجن عشرين عاما .. مع الأشغال الشاقة !



VERDICT
IN CONFLICT
BY
EDGAR LUSTGARTEN
أشهر الأحكام المشكوك فى عدالتها
قاتلة .. أم بريئة ؟
القضية التى ظلت حديث المجتمع الأنجليزى ١٥ سنة !.

هـــذا الكتاب ..

ليس القتل العمـــد ، مع ســبق الاصرار والتدبير والتمهيد ، عملا ســهلا مثل أحاديث الصـــالون ، أو مناورات الغزل و «مقالب» السياسة .. بل أنه ليحتاج إلى جمود فى القلب ، وبلادة فى الحس ، وقسوة دونها قسوة الحيوان البهيم ! .. ويحتاج فوق هذا وذاك إلى حدة فى الذهن ، ورباطة جاش ، وقوة أعصاب وشدة مراس ..

.. ولئن كانت الوحشية مما يكره فى الرجـــال ، وتنفر منه قلوبهم الشداد، فهى فى المرأة أدهى وأعجب، وادعى إلى الاشمئزاز .. وإذا كان القاتل المتدبر البارد الفؤاد شيئا كريها ، فهو مع ذلك ممكن غير مستحيل فى التصور ولا ممتنع فى الوجود . أما القاتلة المتدبرة الباردة الفؤاد فهى الخارقة الفذة ، كالعنقاء والغـــول والخل الوفى !

.. وإلى غرابة هذه الظاهرة ترجع غرابة هـــذه القضية التى تعـــد من أعجب وأخطـــر ما عرض على القضاء الانجليزى ، فكانت امتحانا عسيرا لذلك القضاء .. ثم صار الامتحان ، بتطور القضية وصدور الحكم

فيها ، محنة للعدالة البريطانية ، كما سيرى القارىء من متابعة مراحل هـــذه المحاكمة الفريـــدة فى نوعها ، والتى ألخصـــها لك فى الصـــفحات التالية عن كتـــاب صدر فى إنجلترا بعنوان « أشهر الأحـــكام المشكوك فى عدالتها » !

بـــداية القصـــة

بدأت قصة « فلورنس ما يبريك » ذات النهاية الفاجعة ، فى الدنيا الجديدة فى ســـنة ١٨٨١ .. ففى تلك الســـنة كان « جيمس ما يبريك » ، سمسار القطن الكبير فى ليفربـــول ، يزور أمريكا فى رحلة استوجبتها أعماله الضخمة الواسعة . وكان يومئذ فى بواكير الأربعين من عمره ، قوى البنية ، محبا للرياضة ، طلق المحيـــا .. وكان قبل هـــذا وذاك ناجحا فى أعماله ، موسعا عليه فى الرزق ..

.. وفى خلال تلك الرحلة تعرف إلى الآنسة « فلورنس شاندلر » ، كريمة مدير أحد المصارف الناجحة فى ولاية(الاباما) .. ولم تكن فلورنس قد تجاوزت الثامنة عشرة فى ذلك الوقت مكتملة الانوثة ، شديدة الجاذبية الجنسية ، جميلة الوجـــه والقد .. فأولع بهـــا مايبريك ، ولم يبحر عائدا إلى إنجلترا الا وهى معه ، زوجة له !

وعاش الزوجان فى « ايجبريث » ــ قرب ليفربول ــ عيشة هانئة رغدة ، فى بيت كبير مزود بكل أسباب الترف ، يقـــوم

عليه «جيش» صغير من الخدم .. ويزينه طفلان كأنهما زهرتان .. فكان كل شىء يبدو على مايرام من السعادة والوفاق .

.. ولكن ما بدا عام ١٨٨٩ ، بعد ثمانى سنوات من ذلك الزواج الهادىء الناعم ، حتى بدات « فلورنس ما يبريك » تخوض مغامرة غير مأمونة العاقبة : فقد اتصلت الأواصر بينها وبين رجل يدعى « برايرلى » ، وبلغ من تدلهها فى حب هذا الرجل أن ادعت لزوجها فى مارس من تلك السنة أن قريبة لها ستجرى لها فى لندن جراحة خطيرة ، واتخذت من ذلك الزعم الكاذب ذريعة للذهاب إلى لندن حيث قضت مع عشيقها ثلاثة أيام وثلاث ليال فى حمى غرام ملتهب متصل ، فى فندق من الفنادق المنزوية عن الأنظار ..

وكانت فلورنس يومئذ فى السادسة والعشرين ، وكان زوجها فى الخمسين ..

عاصفة فى البيت !

ثم عادت فلورنس من لندن فاستردت مكانها فى بيت زوجها كأن ذلك الذى حدث فى الفندق فى تلك الليالى الثلاث لم يقع ! .. ونحسب أن زوجها لم يعلم بخروجها عن طريق الاستقامة . ولكن لا شك أيضا أنه لاحظ بعد ذلك أن « برايرلى » يولى زوجته من العناية والاهتمام أكثر مما يجب ، فوجه إلى فلورنس عبارات لاذعة تطورت إلى مشادة ، أسفرت عن « علقة » ساخنة خرجت منها فلورنس الحسناء بورم فى أنفها واحدى عينيها ! ولا شك أنها غضبت وهددت

بترك البيت ، ولولا طفليها لنفذت وعيدها .. ثم تدخل طبيب الأسرة ووفق بينهما فعادت المياه إلى مجاريها ..

.. ولكنها كانت هدنة على ضغينة ! ففى أواخر أبريل التالى — اى بعد شهر واحد من « العلقة » السالفة الذكر — ظهرت اولى اعراض المرض على « مايبريك » ، ذلك المرض الذى لم يفارقه حتى قضى عليه ! .. وكانت تلك الأعراض تجمع بين القىء والمغص ، ثم تتحسن صحته ليعود بعد ذلك إلى تلك الآلام .. ويأتى الطبيب بعد الطبيب ولكنهم لا يصلون إلى نتيجة حاسمة ، فيحضر شقيقه من لندن ليلازمه وقد أخذت صحته فى التدهور ، مقتربا بخطى حثيثة من نهايته المحتومة ! واخيرا مات « مايبريك » !

.. وفتش البيت فأسفر التفتيش عن العثور على «الزرنيخ» فى قراطيس ولفائف وقوارير ، وعلى آثار منه فوق الملابس والسجاجيد والمناديل ! .. وزاد الأمر خطورة حين كشف التحليل البسيط عن آثار زرنيخية فى الجثة !

وهكذا مات « مايبريك » فى ١١ مايو ، ودفن فى ١٣ مايو وقبض على فلورنس فى ١٤ مايو بتهمة « قتل زوجها بالسم مع الإصرار والتدبير » !

الرأى العام يدين المتهمة !

ومهما يكن من وقع الاتهام ، من هدوء أو ثورة أو هياج عصبى أو تراخ وانهيار ، فإن زنزانة السجن لا ترحم .. ولا معين للمتهم الحبيس إلا الأصدقاء والأقرباء الذين يزورونه خلف

تلك القضبان الحديدية . ولم يكن لفلورنس المسكينة ذلك العزاء ، فهى بلا أهل وبلا أصدقاء يشدون أزرها ويشجعونها .. فأهلها وراء المحيط فى أمريكا ، ومعارفها الانجليز يشيحون عنها بوجوههم شامتين ! .. وأخيرا رق لها مكتب أحد المحامين فى ليفربول فوكل للدفاع عنها «سير تشارلس راسل» ، أعظم المحامين الإنجليز فى زمانه ، بل قيل عنه إنه أعظم من عرفته ساحات المحاكم الانجليزية من المحامين : جهارة صوت وقوة عارضة وشدة مهابة ، فلم يكن يصمد أمام استجواباته أعتى الشهود .. ولم يكن هو ليعفى من التقريع والهجوم اللاذع رجال القضاء أنفسهم إذا اقتضى الأمر ، فهو كالصاعقة فى هجومه على الخصوم والشهود ورجال النيابة .. وهو لا يعمد إلى تزويق الكلام واللف والدوران ، فسلاحه قوته لا لباقته !

وكانت فترة التحقيق بمثابة الزيت الذى على النار فزادها اشتعالا ، فإن شكوك الناس قد استحالت اعتقادا راسخا فى اجرام تلك الأجنبية ، حتى لم يعد فى ليفربول كلها من لا يؤمن بادانتها ! .. وحتى صارت أخبار القضية المروعة موضع اهتمام الصحف والجماهير ، فلم تلق قضية فى إنجلترا مثل هذا الاهتمام سوى قضية « أوسكار وايلد » فيما بعد !

.. والقانون الانجليزى يبيح للمتهم فى مثل هذه الحالة أن يطلب نظر قضيته أمام محكمة أخرى ، لأن الحكم بالأدانة أو البراءة رهن برأى المحلفين ، وهم من أهل البلدة ، فإذا نقلت القضية من ليفربول إلى لندن كان ذلك أقرب إلى طمأنينة المتهم على نزاهة المحلفين . بيد أن محامى فلورنس نصحوها

بعدم تغيير المحكمة ، كى تصدر البراءة فى نفس المدينة التى شهدت الأتهام !

أدلة النيابة على اجرام المتهمة

وكان ممثل الأتهام من أقدر رجال النيابة ، فرتب القرائن والأدلة ترتيبا واضحا :

وكان أول هذه القرائن «ورق الذباب» ، وهو ورق لزج تعلوه طبقة من الزرنيخ ، كان يستعمل قبل اختراع رشاشات السوائل المبيدة للحشرات لتصيد الذباب ، ويباع فى مخازن الأدوية بغير رخصة من الطبيب .

.. وثانى هذه الأدلة « خلاصة اللحم » التى وجدت ممزوجة بنسبة من الزرنيخ !

.. وأما الدليل الثالث فخطاب المتهمة إلى عشيقها « برايرلى » قبل وفاة زوجها بثلاثة أيام !

.. وقد بنى أساس الاتهام على أن ورق الذباب هو المصدر الذى استخرجت منه المتهمة مادة الزرنيخ الذى سممت به زوجها .. فقد اشترت فى ٢٤ أبريل « دستة » من هذا الورق من أحدى الصيدليات . وفى يوم ٢٩ من نفس الشهر اشترت « دستتين » من صيدلية أخرى ! .. وشاهد بعض الخدم بضعة أوراق منها منقوعة فى اناء مغطى بفوطة فى حجرة نوم المريض ! وكان ممثل الاتهام بارعا فى ربط تاريخ شراء الدستتين الأخيرتين بالفترة التى تحسنت فيها صحة المريض قبيل ذلك ، بعد نوبة التسمم الأولى !

ولكن مهلا ! فان دواعى الظن ليست كافية لأن تكون دلائل قاطعة على الإدانة بالمعنى القضائى .. فشراء أوراق الذباب أمر ثابت ، وهــو يحمل على الظن بانهــا حاولت استخراج الزرنيخ منها .. ولكن ليس هناك ما يثبت انهــا استخرجت الزرنيخ فعلا من هــذا الورق . وليس هنــاك ايضا ما يدل بصفة قاطعة على الغرض الذى استخدمت فيه كمية الزرنيخ المستخرجة ..

.. اما خلاصة اللحم فالقرينة فيها اثبت وابعد مــدى . وقصارى القول فيهــا انه فى معظم أطوار مرض « مايبريك » الأخير كانت زوجته هى التى تشرف بنفســها على طعــامه ودوائه إلى أن كانت المرحلة الأخيرة فظهــرت على المسرح المرضات المحترفات .. وقد شهدت احدى هاتيك المرضات بأنها رات فلورنس تعبث بقنينة خلاصة اللحم قبيل موعــد تعاطى الفقيد كمية منها ! فحرصت المرضة على الا تعطيــه من تلك القنينة بالذات شيئا .. وقد اثبت الفحص الكيماوى بعد ذلك أن هذه القنينة كانت تحتــوى على نصف خردلة من الزرنيخ !

خطاب المتهمة .. إلى عشيقها !

واما الخطاب الأخير الذى كان موجها من فلورنس إلى عشيقها فلم يصــل إليه طبعا ، فقد كلفت فلورنس إحــدى خادمات البيت بإلقائه فى صندوق البريد ، ولكنه سقط من يد الخادم على الأرض فاتسخ ففتحته لتغير المظروف ، ولكنها لم

تر بأسا فى قراءته قبل أن تضعه فى المظــروف الجديد ، فلما قرأته لم تضعه فى المظروف الجديد ، وبالتالى لم ترسله إلى صاحبه بل سلمته إلى شقيق « ما يبريك » الذى كان قد لزم البيت لاشتداد العلة على أخيه ..

وبلغ من أهمية هذا الخطاب أن المحامى العظيم راســل قال بعد ذلك إنه لولاه لما كان هناك سبيل إلى الإدانة . وهذا هو نص الخطاب :

« .. منذ عدت من لندن وأنــا أمرض م . وهو مريض مرض الموت . وقد عقد الأطباء مؤتمرا امس ، والمسألة هى : كم من الزمن سيستطيع المقاومة ؟ .. وهو يحتضر منذ يوم الاحد . وإنى واثقة من أنه لم يعلم شيئا ، حتى ولا اســم الشــارع . وواثقة انه لم يقم باى تحريات ، فليس من الضرورى إذن أن تبحر إلى الخارج من اجل هذا الموضوع ، بل اتوسل اليك يا حبيبى أن تبقى فى إنجلترا إلى أن أراك مرة أخرى .. »

وقد يدعو إلى الدهشة ان يعتبر هذا الخطاب دليل ادانة. ولكن تزول الدهشة إذا علم ان الأطباء فى تاريخ كتابة هــذا الخطاب لم يكونوا قد قرروا بعد أن « مايبريك » مريض مرض الموت ، رغم سوء حالته . بل قرر معظمهم ان الأمل فى شفائه لم يكن ضئيلا . ولم يقرر احد أن مسألة موته متوقفــة على طول مقاومته .. كما شهد كل منهم بأنه لم يبدأ فى الاحتضار يوم الاحد بل كانت حالتــه فى ذلك اليوم عــادية بالنســبة لمرضه !

شهادة شقيق القتيل

وكان الشاهد الأول شقيق « مايبريك » ، وقد اعترف بانه ارتاب فى علاج وتمريض شقيقه ، وخطر له ان زوجته تدس له السم البطىء ! واعترف كذلك ، عندما سأله محامى المتهمة ، بأنه هو الذى ادخل هذه الفكرة فى رءوس الممرضات والخدم ايضا . ويعزى استدراجه لهذا الاعتراف إلى براعة « سير شارلس راسل » فى الاستجواب والاحراج .. فانه لم يلبث أن وجه إليه السؤال التالى :

— ما دمت قد شككت ، فهل اعطيت التعليمات للممرضات بوجوب الحذر والعناية لصيانة حياة المريض من كل محاولة مريبة ؟

— اجل ، اعطيت هذه التعليمات .

— هل كان من شأن هذه التعليمات ان يفهم منها ان هناك شكا قويا يوجب المبالغة فى الحذر والاحتياط ؟

— اجل ..

.. وهكذا قوض « راسل » اساس الاتهام ، لانه شكك فى شهادة الممرضة بشأن عبث فلورنس بخلاصة اللحم ، فربما كانت الحركة بريئة ولكن سوء الظن الذى ادخله الشقيق فى ذهن الممرضة هو الذى جعلها ترى ما تريد ان ترى ، لا ما هو حاصل فعلا !

.. وحرص «راسل» على استدراج الأطباء للشهادة حول خصائص الزرنيخ، حتى انتهوا إلى الاعتراف بالحقائق التالية: اولا انه يستعمل لتقوية الاعصاب .. وثانيا انه كان من عادة

الفقيد أن يتعاطاه لهذا الغرض .. وثالثا انه كان احيانا يتعاطى مقادير مضاعفة منه .. ورابعا ان فلورنس كانت تشكو للطبيب من هذا التصرف وتطلب منه التدخل لدى زوجها لمنعه !

.. واستطاع المحامى كذلك أن ينتزع من الأطباء اقرارا بأن اعراض التسمم بالزرنيخ لا تختلف عن اعراض مرض معين آخر كان « ما يبريك » مصابا به ويسميه الأطباء Gastro-Enteritin

.. وبمناقشة الطبيب الكيماوى اعترف بأنه لا دليل على ان كمية الزرنيخ التى وجدت كانت هى السبب فى الوفاة !.. كما استدرجه المحامى إلى الاعتراف بأن شقيق الفقيد كان قد افضى إليه قبل الفحص بشكوكه القوية .. وانه لولا هذه الشكوك لحرر شهادة الوفاة على اساس انها وفاة عادية غير جنائية ، وبالتالى لما كانت هناك قضية ؟

وكانت الضربة القاضية هى اقرار الدكتور «ستيفنس» الطبيب الشرعى بأن الدليل الوحيد القاطع بالتسميم بالزرنيخ هو أن يكتشف الزرنيخ فعلا فى الجثة ، وان ما عدا ذلك من الاعراض يشتبه بأعراض أمراض اخرى ! .. واذن فليس هناك دليل علمى على وقوع جريمة القتل . فمدمن تعاطى الزرنيخ قد مات ميتة طبيعية بأسباب طبيعية ! وهكذا تغير الموقف ، فبعد أن كان ضد المتهمة صار فى جانبها ..

واخيرا تكلمت المتهمة !

وما بارح آخر الشهود مكانه حتى وقف « سير تشارلس راسل » واعلن للمحكمة ان المتهمة تريد ان تفضى ببيان عن

موضوع القضية . وقد كان القضاء الإنجليزى فى ذلك الوقت يسمح للمتهمين بمثل ذلك البيان التوضيحى وإن كان لا يسمح لهم باداء الشهادة عن انفسهم ، الأمر الذى عدل بشأنه نص القانون بعد ذلك بسنوات .

.. ووقفت فلورنس فبدت مضطربة متلعثمة ، ولكنها عالية الراس ثابتة النظرات . وكان طبيعيا ان تضطرب بعد ان جلست فى القفص ساعات فى اثر ساعات تواجه الحاضرين وتسمع همسهم ، وتشهد قضيتها ومصيرها يتارجح بين شفاه الشهود ، والنيابة ، والمحلفين ، والقاضى !

وكان اول ما تكلمت فى صدده هو أوراق الذباب ، فانه لم يثبت من التحقيق انها استخدمت فى القتل . ولكن بقى أن يعرف فيم استخدمت على الاطلاق . فقررت انها كانت تعانى من التهابات جلدية وبثور ، وانها فقدت فى امريكا دواء كان يدخل فى تركيبه الزرنيخ لعلاج هذه البثور ، فأحبت أن تستعيض عنه بمنقوع اوراق الذباب فى الماء كعلاج ملطف . وكانت مهتمة بعلاج هذه البثور قبل الثلاثين من ابريل ، وهو موعد حفلة راقصة كانت مدعوة اليها ..

.. واما المسألة الأخرى التى تناولتها بالبيان فهى خلاصة اللحم التى وجد الزرنيخ ممزوجا بها ، وقد قررت فى شانها ان زوجها كان يشكو من هبوط عام فى قواه ، وكان من عادته قبل ذلك أن يتعاطى الزرنيخ للتقوية — (وما زال الحديد والزرنيخ دواء مقويا شائع الاستعمال إلى اليوم) — فاعطاها مقدارا منه لتمزجه بخلاصة اللحم . ولما كانت تعانى

من مرضه نفسيا وجسمانيا أطاعته ، دون أن تستشير احدا ، لأنها كانت كما قالت بغير صديق واحد فى ذلك الوقت — فأخوه يكرهها ويشك فيها، وسائر الناس يعتبرونها اجنبية دخيلة ، فلم يكن فى وسعها الاعتماد على اخلاص احد او استنصاحه ..

وما انتهت هذه الشهادة التى لم تتجاوز خمس دقائق ، كلفتها ثمنا غاليا جدا من اعصابها ، حتى جلست متهاوية على مقعدها .. وآن للسير تشارلس راسل ان ينهض بقامته المهيبة فيسوى رداء المحاماة فوق كتفيه .. واشرأبت الاعناق لسماع ذلك الدفاع المنتظر .

دفاع مجيد

لم يعمد المحامى العظيم إلى التنميق وازجاء المقدمات او اللعب بالعواطف ، بل خاطب المحلفين بلغة المنطق القانونى المجرد ، فبين لهم ان مهمتهم تنحصر فى تقرير امرين : اولا ، هل حدث الموت قتلا بالزرنيخ ؟ فاذا كان القرار بالنفى فلا وجه للنظر فى موضوع القضية . وثانيا ، إذا كان القتل قد حدث بالزرنيخ ، فهل المتهمة هى التى دسته للقتيل ؟ فاذا كان الجواب بالنفى تعين عليهم تبرئة المتهمة !

.. ثم انثنى المحامى يشرح ما تبين من شهادة الأطباء بالتفصيل ، وهو ان لا دليل على أن الوفاة حدثت بالزرنيخ .. واستطرد بعد ذلك يقول :

« ولعله يخطر لكم ان تتساءلوا يا حضرات المحلفين عما ادى إلى القتل إذا كان السم ليس هو السبب . ولكن اعلموا

ان هذا ليس موضوع القضية ، فموضوع القضية ينحصر فيما يلى : اما ان يثبت بالدليل القاطع ان فلورنس بالذات قد قتلت زوجها بالسم فعلا ، او لا يثبت هذا ثبوتا قاطعا فتبرئوا ساحتها .. إذ أن كل شك يجب أن يفسر لمصلحة المتهم ، بحكم القانون ، والبينة على من ادعى .. فعلى النيابة اذن ان تثبت التهمة ، وليس على الدفاع الا ان يبين ان ادلة النيابة غير قائمة او غير كافية . ومع هذا يا حضرات المحلفين فانى اتجاوز عن حقى واتطوع لانارة اذهانكم فى هذا الموضوع ، فاقول : اليس من الجائز لرجل مريض أدمنت اعصابه مادة الزرنيخ من زمن ، ان يخطىء فى مقدار الجرعة او يبالغ فيه لأى سبب من الأسباب ؟ واليس من الجائز ان مثل هذا الرجل إذا ساءت صحته وضعفت بنيته قضت عليه الجرعة العادية من حيث لم تكن تضيره وهو فى تمام عافيته ؟ ومهما يكن من أمر يا حضرات المحلفين فلست أرى امامكم وجها واحدا تقضون منه بادانة هذه المتهمة بالأدلة التى قدمتها لكم النيابة . وانى لأتساءل : اكانت المتهمة فى حاجة إلى ورق الذباب لاستخراج الزرنيخ منه وقد وجدت منه مقادير كبيرة فى قوارير ولفائف فى أمكنة كثيرة من المنزل ؟ لو انها يا حضرات المحلفين أرادت استعمال السم لما كانت بها حاجة إلى تعريض نفسها للشبهة بشراء ورق الذباب !

.. ثم ختم المحامى مرافعته المجيدة قائلا :

« واعلموا يا حضرات المحلفين اننى لا اطلب منكم رحمة ولا عطفا ، فليس لكم والله من ذريعة الا حكم ذلك القانون الذى ضمنه المشرع الحكيم ما ينبغى من رحمة وعطف : فاما

دليل قاطع فإدانة ، أو ما دون ذلك فبراءة ، ولا وسط بينهما ولا خيار فى الأمر !.. فلست أطلب اليكم الا رعاية ذلك القانون والتزامه .. فالأصل هو البراءة ، ولا ادانة الا ببرهان لا يأتيه الشك من بين يديه ولا من خلفه »

ماض مجيد .. ولكن !

وانتهى المطاف ، ولم تبق الا كلمة القاضى يلخص بها وقائع الدعوى ، ثم كلمة النيابة وكلمة الدفاع . ولكن لا بد هنا من كلمة عن ذلك القاضى : كان القاضى « ستيفن » رجل ادب ذواقة ، اوسع افقا مما يتيسر عادة لرجال القضاء ، وهو فى احكامه القضائية طوال خدمته المديدة مثال الرجل الذى يحسن تأويل النصوص ولا يتقيد بحرفية القانون . ومن اصدقائه كبار مفكرى الجيل — ويكفيه شرفا انه كان من خاصة أصدقاء « كارلايل » ! — غير انه فى تلك الفترة بالذات كان قد بدأ مرحلة جديدة من حياته ، فذلك العقل المحكم قد اخذت روابطه تتآكل ، فهو كثير الذهول ، مضلل القياس ، مختلط التصور .. وقد انتهى الأمر به إلى الاعتزال القهرى لمنصبه بعد سنوات من ذلك التاريخ المشئوم . ونقول التاريخ « المشئوم » لأنه فى هذه القضية قد لخص الوقائع والأقوال للمحلفين تلخيصا فادح الخطأ ، فجانب الحقيقة فى الأقوال والحوادث ، مما قلب الأوضاع فى القضية رأسا على عقب . ثم طالب المحلفين باعتبارات فى نظر القضية لا أصل لها ، بل ولا معنى لها فى بعض الأحيان ، وبهذا تلقى المحلفون من يد القاضى بيانات مشوهة وتوجيهات طائشة !

.. واختلى المحلفون اربعين دقيقة أو اقل ، ثم خرجوا على الناس بقرار يدين فلورنس بجريمة القتل العمد ويقضى .. بإعدامها شنقا !

صــدى الحكم

وقامت الدنيا وقعدت لذلك الحكم الذى اعتبر مخالفة صارخة لبديهيات العــدالة والتشريع : فكتبت « التايمس » بوقارها وجــلالها مقالة افتتاحية فى التنديد بــذلك الحــكم الجائر ! وعقد الأطباء اجتماعات نددوا فيها بالأسس الخاطئة طبيا التى بنيت عليها الادانة .. واهتزت الدوائر العليــا فى وزارة العــدل ، وتوالت الاجتماعات بين قاضى القضــــاة والقاضى « ستيفن » والنائب العام .. ولكن ذلك كله لم يحل دون اجتهاد الصناع والنجارين فى نصب المشنقة للســجينة المذهولة المنكودة الحظ !

.. وأخيرا ، فى الثانى والعشرين من أغسطس ، ولم يبق على موعد الشنق سوى اسبوع واحد ، صدر أمر ملكى بابدال حكم الاعدام بالأشغال الشاقة مدى الحياة . وحاولت وزارة العــدل تغطيــة موقف القضـــاء فقالت ان التخفيف لا يرجع إلى البراءة ــ فمن الثابت ان المتهمة حاولت تسميم زوجها ــ ولكنه يرجع إلى انه لم يثبت ان السم كان هو سبب موت المجنى عليه بشكل قاطع !

أو بمعنى آخر ان اصلاح الخطأ القضائى كان بخطأ اكبر منه : لأن معناه ان المتهمة ادينت بتهمة « محاولة » القتــل ،

وهى تهمة لم توجه اليها فى القضــية ، وانما كانت التهمــة تنحصر فى القتل فعلا ومع سبق الاصرار والتدبير !

.. ولم يأل السير راسل جهده فى محاولة اصلاح ذلك الخطأ ، لكنه مات فى سنة ١٩٠٠ ، وقد وصل إلى منصــب قاضى القضــاة ، دون ان يظفر بطائل !

ولكن فى سنة ١٩٠٤ تنبه الضمير الإنجليزى اخيرا إلى نداحة خطئه ، وحاول محو الوصمة عن جبينه ، فأطلق سراح « فلورنس مايبريك » ، بعد أن فقدت شــبابها وملاحتهــا وتفتحها للحيــاة ، مع خمس عشرة ســنة هى خــير عمــر الإنسان !

والآن ، وقد اثيرت هذه القضية من جديد فى الــكتاب الذى لخصنا وقائعها عنه ، لم تعد المسألة التى تشغل الراى العام الإنجليزى هى البحث فيما إذا كانت « فلورنس » قــد قتلت زوجها ام لا .. بل البحث فى : هل ثبتت عليها التهمة ؟

.. والجواب : كلا ولا مراء ! ولكن لم تكن انجلترا فى ذلك الوقت تعرف النقض والاســتئناف ، فكان ذلك الحــكم المخجل وامثاله سببا فى انشــاء محكمــة النقض ومحــكمة الاستئناف الجنائية ، لضمان حقوق المتهمين ، ولكى لا يتلطخ جبين العدالة الإنجليزية الوقور بمثل ذلك الحكم الذى يعــز نظيره فى قضاء العالم ، فى الجور والافتئات ..

الفهرس

صفحة

الغانية السمراء ! ٣

الجثة الحائرة ! ٢٧

عجز الملك عن إنقاذها ! ٤٧

الغانية الخطرة ! ٧٣

اضله الهوى ! ٩١

انتقام عاشقة ! ١٠٩

امرأة .. بلا ضمير ! ١٢٩

مأساة إنسانية نظرت أمام المحاكم الفرنسية ١٤٣

قاتلة .. ام بريئة ؟ ١٥٧

رقم الايداع : ٤٣٧٩

٩٧٧ - ١٦٣ - ٠٨٠ - ٦

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية

تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



عزيزى القارئ ..

قدمت لك فى الكتابين السابقين (الجزءين الأول والثانى من المحاكمات الكبرى) محاكمة سقراط ، ومحاولة اغتيال فرعون مصر رمسيس الثالث، ومحاكمة وإعدام ملكة إنجلترا (آن بولين) على يد زوجها زير النساء (هنرى الثامن)، ثم محاكمة وإعدام ملك إنجلترا (تشارلس الأول) ، وملك فرنسا (لويس السادس عشر) ومحاكمة (دريفوس) ، ومحاكمة قاتل (راسبوتين)، ومحاكمة (مرجريت فهمى) قاتلة زوجها المليونير المصرى (على فهمى كامل)، ومحاكمة المحتال الفرنسي الشهير (ستافيسكى)، ثم جريمة (حارة التونى) فى القاهرة .. إلخ .. إلخ .

وفى هذا الجزء الثالث والأخير من المحاكمات الكبرى أقدم لك عددًا من المحاكمات لنساء قاتلات، تحت عنوان (نساء ومآس فى ساحة العدالة)! للمحقق الفرنسى (روجيه ريجى)، تروى لك مآسى (الغانية السمراء)!، ثم (الجثة الحائرة)، و (الحسناء الخطرة)، ثم (انتقام عاشقة) فمأساة (القاتلة التى عجز الملك عن إنقاذها)!. وقصة (الجمال القاتل فى قفص الاتهام).. إلى آخر هذه السلسلة من المحاكمات الكبرى لنساء أضلهن الهوى ، فتحولن إلى قاتلات آثمات!

والله ولى التو[فيق]

[...] مراد

